الفصل الرابع عشر

الخروج من المستنقع

- **ـ ملامح المستنقع**
  - ـ عقائديًّا: نحن حيوانات عشوائية فانية
  - ـ فكريًّا: جعلوا من المذهب المادى دينًا
  - ـ أخلاقيًّا: كل شيء مباح
  - ـ يسخر منهم الباحثون عن الحقيقة
  - ـ علميًّا: الاغترار بالعلم والعلماء
- **ـ منظومة الإيمان الثلاثية:**
  - ـ هل هناك إله؟
  - ـ مجادلة الشر والألم
  - ـ النجاة...
  - ـ هل تواصل الإله مع الإنسان؟
  - ـ أى الرسالات السماوية أولى بالاتباع؟
  - ـ لماذا الإسلام؟+
  - ـ إنكار منظومة الإيمان رهان خاسر
- **ـ تجديد الفكر الدينى**
  - ـ الفكر الدينى الجامد
  - ـ تجربة شخصية مؤلمة
  - ـ سمات الفكر الدينى الجامد
  - ـ صيحة تحذير ... لماذا التجديد الآن
  - ـ أسس تجديد الفكر الإسلامى
  - ـ دعوة إلى المصالحة
    - مع الدين
    - مع الإنسان
    - مع العلم
    - مع العقل
    - مع التاريخ
    - مع الطبيعة
    - نموذج مشرف للمصالحة والتجديد
- **ـ القارئ الكريم: قراءة فى الكتابين**

«مـن المحـزن جـدًّا أن يكـون الإلـه غـير موجـود، إن كل القيم والأخلاق التى يمكن تصورها سـتتلاشى معه، لن يكون هناك خير فطرى، فليس هناك مرجعية أومقياس».

جان بول سارتر!

«فإن كنت لا تدرى فتلك مصيبَةٌ وإن كنت تدرى فالمصيبَةُ أعظمُ[1]**»**

حكمـة عربية عميقة تعكس خطورة ما عليه الملاحدة، وتضعهم فى أحد فريقين؛ إما أنهم **جهلاء**، وهؤلاء يَسـهُل تعليمهم أو أنهم من فريـق **مصيبة الكِبر الإبليسى الأعظم**. إن الملاحدة فى كلا الحالين يعتبرون أنفسهم الحكماء وأن من سواهم متخلفون جهلاء أغبياء، ومن ثم فهم **غارقون فى مستنقع آسن**، وكلما تعاظمت الأدلة العلمية والعقلية على الوجود الإلهى كلما ازداد عنادهـم وتزايدت عفونة مسـتنقعهم، ومـن أجل أن يخرجوا مما هم فيه ينبغـى أن يتنبهوا لهذه الحقيقة، وهذا ما سنعينهم عليه فى هذا الفصل.

مـلامـح المستنقـع

يتسم مستنقع الإلحاد بعدد من الملامح التى فَصَّلناها طوال فصول الكتاب السابقة، ويمكن أن نلخصها فى النقاط التالية:

عقائديًّا: نحن حيوانات عشوائية فانية

لا يجـد كثـير من الملاحـدة غضاضـة فى الإقرار بوجـود الإله! شريطة ألا يسـتتبع ذلك

(1) بيت من الشعر ختم به الإمام ابن قيم الجوزية قصيدته الرائعة فى وصف الجنة، معاتبًا به مَن لا يسلك الطريق إليها. والراجح أن القول سبقه به الفاروق عمر بن الخطاب فى رسالة بعث بها مؤنبًا عمرو بن العاص حين اعتذر له بأنه لم يكن يدرى أن ابنه قد ضرب القبطى الذى فاز عليه فى سباق الخيل.

إقــرار ببعث وحياة أخرى بعــد المــوت ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ ...﴿٧﴾ ﴾ [التغابن].

ويستتبع إنكار البعث انقلابٌ جذرى محورى. فالإنسان، ذلك الكائن الخالد أبدًا، والذى خُلِقَ لغاية، والمكلف والمرَاقَب والمحَاسب من قِبَل الإله، يصبح **حيوانًا عشوائيًّا فانيًّا** ﴿ وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ ...﴿٢٤﴾ ﴾ [الجاثية].

أخلاقيًّا: كل شىء مباح

«مـن المحزن جدًّا أن يكون الإله غير موجود، إن **كل القيم والأخلاق التى يمكن تصورها ستتلاشى معه**، لن يكون هناك خير فطرى، فليس هناك مرجعية أو مقياس، لن نعود نقول إن الإله موجود فينبغى أن نكون أمناء، ينبغى ألا نكذب،... لقد أصاب دستوفسكى حين قال: **إذا لم يكن الإله موجودًا فإن كل شىء مباح**».

لقد أصاب القائل عين الحقيقة، ما أشد إيمانه...

لا... لم يكــن **جــان بول ســارتر!** قائل هــذه العبارة مؤمنًــا حين قالها، بــل كان أحد كبار الملاحدة المحترمين[1]! ويعلق ســارتر على مقولة دستوفســكى قائلًا: «هذه هى **نقطة الانطلاق فى الفلســفة الوجودية**، ففيها يصبح الإنسان بائسًــا تائهًا، فلا شىء داخله ولا خارجه يمكن أن يتعلق به، بل لن يصبح قادرًا على التماس العذر لنفسه».

حتى زعيم الملاحدة المعاصرين ريتشــارد دوكنز يدرك **خطــورة غياب الدين!** فيقول: «لا تســتطيع أن تبنى القيم الأخلاقية المطلقة على أى أساس إلا الدين!»[2]. وتارة أخرى يقول: «فى عالم ليس فيه ســوى **قوى الطبيعة العمياء** وتَحَكُّم الجينات، ســيُدَمَّر بعض الناس وســينجو من هم أكثر حظًّا، لن تجد فى ذلك أى منطقية أو عدالة. إن هذه الأمور منطقية تمامًا فى عالم يخلو مــن التصميــم والغائية، ليس فيه شر أو خير. ليس هناك إلا العماء واللامبالاة، فالدنا DNA لا يعرف ولا يبالى، هذا هو لحن الدنا، وليس لنا إلا أن نرقص على موسيقاه»[3].

---

(1) أصفه بالاحترام لأنه كان باحثًا بإخلاص عن الحقيقة، وانتهى به السعى إلى الإيمان بالله وهو على فراش الموت.

(2) A Devil's Chaplain, P.93: كاهن الشيطان.

(3) River out of Eden, New York, Basic book 1992, P.133

يريدنا دوكنز أن **نقنع بعالم لا أخلاق فيه**، ما عصف به من مصائب (حروب عالمية ـ تصفيات عِرقية ـ حروب صليبية ـ قنابل ذرية) ليس إلا اتباعًا لأوامر جينية، ومن ثم لا ينبغى أن نلوم هؤلاء المجرمين أو نحاسبهم. عفوًا، إن عالمًا كهذا ليس فيه للوم والمحاسبة معنى. تصور ما سيحدث لأجيالنا القادمة عندما نلقن هذه المفاهيم لأبنائنا فى المدارس.

علميًّا: الاغترار بالعلم والعلماء

يظن الكثيرون أن **العلم معصوم كوحى السماء** وإن كان يبدل رأية دائمًا! ويعتبره آخرون المرجعية الوحيدة وصاحب الكلمة النهائية. وإذا كان هذا الفهم صائب بالنسبة للعلوم التجريبية والتطبيقية فإنه خطأ بالنسبة لأكثر العلوم إلحاحًا فى حياتنا؛ كالدين والسياسة والقيم والأخلاق. ويضاعف من الخطأ أن الكثيرين ينظرون إلى **العلماء التجريبيين والتطبيقيين** نظرة تبجيل جعلهم يطلبون مشورتهم فى أمور خارج مجالات تخصصاتهم ويقبلون آراءهم بثقة، كأنهم الطبقة الجديدة من المفكرين والفلاسفة ورجال الدين!

فكريًّا: جعلوا من المذهب المادى دينًا

يَقْصُر البعض **«قضية الوجود الإلهى»** فى إطار **«المباحث الفلسفية»** التى تتصدى للإجابة عن الأسئلة الوجودية المحورية. لكنها فى الحقيقة تتجاوز ذلك كثيرًا فهى **«قضية علمية»** تشارك فى تفسير ما يعجز العلم عن تفسيره بشكل نهائى، وأيضًا **«قضية أخلاقية»** لمعرفة الخير والشر، وكذلك **«قضية سلوكية»** تحدد للإنسان كيف يسلك ليحقق السعادة فى هذه الحياة وفى الحياة الآخرة. إن قضية الوجود الإلهى تغطى كل هذه المجالات وأكثر.

لذلك عندما نشر دوكنز كتابه «وهم الإله» فإنه لم يكن يطعن فى مفاهيم فلسفية نظرية فقط، لكنه كان يطعن فى مفاهيم علمية وأخلاقية وسلوكية أيضًا. وعندما يتنكر الملاحدة للإله، ويعتقدون أنهم قد تخلصوا من قبضة الدين (كما يقولون)، فإنهم فى الحقيقة يقعون فى **قبضة المذهب المادى** الذى يقدم لهم الأجوبة الخطأ على كل الأسئلة الفلسفية المحورية. ولننظر إلى أهم هذه الأسئلة وأجوبة المذهب المادى عليها:

هل هناك إله؟ ... لا

كيف ينبغى أن نحيا؟ ... كما تشاء

ما مكاننا فى الكون؟.. كأى موجود

ما علاقتنا بباقى الكائنات؟.. نحن أحد الحيوانات.

هل هناك حياة بعد الموت؟.. لا

هذه إجابات ديانة المذهب المادى! على الأسئلة الفلسفية المحورية، وأتحدى أى ملحد أن يقدم **دليلًا علميًّا** على أى من هذه الأجوبة، ومن ثم فإن ادعاء الملاحدة أنهم ينطلقون فى نظرتهم للإنسان والكون من العلم ادعاء كاذب.

يسخر منهم الباحثون عن الحقيقة

يصف جون همفرى[1] (المذيع الشهير فى الإذاعة البريطانية BBC) نفسه بأنه «لا أدرىّ»، وقد ضَمَّنَ أفكاره كتابًا أسماه «نحن نشك فى الإله»[2]. وبالرغم من ذلك، فإنه بعد أن حاور العديد من **الملاحدة الجدد** صار **يرفض مواقفهم تمامًا**، وكتب هذا الحوار الافتراضى الساخر يُفَنِّد فيه دعاواهم:

قال الملحد: غالبًا ما يكون **المؤمنون سُذَّج أو أغبياء**، أو على الأقل ليسوا بمهارة الملاحدة.

- **أجابه همفرى**: إن هذا الادعاء غير حقيقى بالمرة، ولا يستحق النظر فيه. وإذا كان دوكنز فى كتابه «وهم الإله» يدعى أن هناك علاقة عكسية بين الذكاء والإيمان، ويستدل على ذلك بأن قليلين من أعضاء الجمعية الملكية يؤمنون بالإله المتشخص، فإن ادعاءه لا قيمة له. وإذا كنتُ أعرف بعض المتدينين الأغبياء، فإننى أعرف ملاحدة لا أثق أن يبدل لى أحدهم مصباح الكهرباء إذا احترق (يشير هنا إلى دوكنز نفسه).
  - إن الأذكياء من **المتدينين قليلو الحيلة**، لذلك يعتنقون الدين كـ«عكاز» يستعينون به فى حياتهم.
- إن ذلك لا يعنى شيئًا، فأنا أعرف الكثير من الملاحدة الذين يستخدمون عكاكيز أخرى بدلًا من الدين، كالخمر مثلًا.
  - يجبن المتدينون عن **مواجهة الموت** باعتباره فناءً نهائيًّا لهم، لذلك يتعشمون فى حياة أخرى بعد البعث.

(1) John Humphys: الإعلامى البريطانى الشهير، أحدث نقلة كبيرة فى أداء الإذاعة البريطانية. ولد عام 1943.

(2) In God we Doubt

- ربما، لكن ذلك لا يعنى أنهم مخطئون، فأنا أعرف الكثيرين من الملاحدة الراقدين فى مراكز علاج السرطان ويرتعدون فزعًا من الموت.
  - ليس هناك أطفال مسيحيون بالفطرة، بل يتم **غسيل أدمغتهم فى أثناء التنشئة**، ويبدأ ذلك بعملية التعميد.
- حقًّا، لذلك فبعضهم يتخلى عن تعميده ويتبنى الإلحاد عندما يكبر، لكن الكثيرين منهم يتمسكون بدينهم.
  - لقد تم **جذبهم قسرًا إلى الإيمان**.
- ذلك صحيح فى بعض الحالات، لكن ثق بأن هؤلاء ليسوا مؤمنين، لكنهم يتظاهرون بالإيمان.
  - إن توجيه أولادنا لتبنى الدين يُعتبر نوعًا من «**سوء استعمال الأطفال** Child abuse»، تمامًا كاغتصابهم جنسيًّا. ينبغى أن نتركهم يمارسون حرية اختيار العقيدة عندما يكبرون، دون ضغوط أو توجيه.
- لا بأس، بشرط أن يتوقف المجتمع والإعلام عن إغرائهم بنمط الحياة الإلحادى المتحرر، حتى تكون حرية الاختيار حقيقية.
  - إذا لم نقضِ على المعتقدات الدينية خلال أسبوع فإن **حضارتنا ستهلك!**
- لا شك أن مِنَ المتطرفين الدينيين مَنْ هم خطيرون وربما مجانين، وينبغى التعامل معهم بجدية. لكننا عشنا مع ديانات التوحيد قرابة 4000 سنة، وأستطيع أن أدلك على بعض السلوكيات الأكثر خطورة على الحضارة والتى يمارسها الملاحدة.
  - أنهى الملحد الحوار قائلًا: ثق بما أقوله لك، فأنا **ملحد عن اقتناع**.
- أجابه همفرى: **ولماذا أثق بك؟!**

ويعلق همفرى ساخرًا: لا تظن أننى بذلك الحوار المقتطب الساخر شوهت أفكار الملاحدة فهذه هى حقيقتهم تمامًا، وهذا الأسلوب هو **دأبهم فى الحوار**.

القارئ الكريم...

أوجزنا فيما مضى من الفصل ما فصلناه فى أبواب الكتاب من ضلال وخطورة ما يتبناه الملاحدة من أفكار، والآن جاء دور الخروج من المستنقع واللحاق بمنظومة الإيمان.

منظومة الإيمان الثلاثية

لا شك أن قضية الإيمان **قضية مركبة**، ويمكن تحليلها إلى **ثلاثة مستويات**، إذا تحقق السابق فإن اللاحق يطرح نفسه تلقائيًّا، وبذلك تكتمل منظومة الإيمان:

أولًا: هل هناك إله؟

ثانيًا: هل تَواصَل الإله مع مخلوقه الإنسان عن طريق رسالات سماوية؟

ثالثًا: أى الرسالات السماوية أولى بالاتباع؟

أولًا: هل هناك إله؟

فندنا فى الفصول السابقة دعاوى الملاحدة، كما عرضنا البراهين والأدلة العلمية والعقلية والفلسفية على أن «هناك إلهًا». وتُرَكز «**الأدلة العلمية**» على شِقّين: **الأول؛ علوم البدايات،** فنشأة الكون من عدم، وظهور الحياة فى المادة غير الحية، وبزوغ العقل الإنسانى، أمور لا يمكن أن تقوم بها الطبيعة العمياء، ولا بد لها من **موجد حى ذكى خالق بارىء مصور**. **والشق الثانى؛** ما عليه منظومة الكون والحياة والعقل الإنسانى من **تعقيد هائل،** بحيث لا يمكن **تفسير بقائها وممارستها لأنشطتها** من خلال قوانين الطبيعة فقط، ولا بد لها من **الإله القيوم القادر** سبحانه وتعالى.

ويتمسك الملاحدة بأن «**العلم**» **يعجز عن إثبات أو نفى الوجود الإلهى** باعتباره خارج إطار الوجود المادى (كما ندعى نحن المتدينين) الذى يتعامل معه العلم. لذلك تقوم استدلالاتنا العلمية على إثبات **أن نشأة الوجود وبنيته واستمراريته تتسم بالذكاء وتحتاج إلى تصميم ذكى،** ومن ثم يقف ورائها **مصمم ذكى** لا يكون إلا الإله الخالق الحكيم القادر.

وقد طرحنا فى فصول الكتاب «**الأدلة العقلية والفلسفية**» على الوجود الإلهى من خلال **تفاعل العقل المعاصر مع العلم الحديث**، ولا يعنى ذلك أن هذه الحجج لم تُطرَح من قبل، بل إن

علم الكلام طرح جميع هذه الأدلة واستخرجها من القرآن الكريم منذ قرابة ألف سنة، وأكثر هذه الأدلة قبولًا فى العقيدة الإسلامية هى:

1- دليل الخلق والإيجاد[1]: وهو يقابل **البرهان الكونى**، ويعنى أن نشأة الكون من عدم تدل على وجود الإله الخالق. ويلخصه قول الأعرابى: البعرة تدل على البعير والخطو يدل على المسير، أَسَمَاء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ألا تدل على الخالق القدير.

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران].

2- دليل الوجوب: وهو يقابل قولنا إنه لا يجوز تسلسل الموجودات الحادثة فى السببية إلى ما لا نهاية **(التسلسل يمتنع)**، ومن ثم لا بد من سبب أول واجب الوجود[2].

﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الطور].

3- دليل الإتقان والنظام (التقدير): ويقابل **دليل الضبط الدقيق**، ويعنى أن دقة بناء الكون وقوانينه تدل على وجود الإله الخالق.

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ﴾ [الملك]. ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النمل]. ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [القمر].

4- دليل العناية (الغاية): وهو يقابل **المبدأ البشرى**، ويعنى أن الكون قد تم بناؤه ليكون ملائمًا تمامًا لنشأة الإنسان، ويعود هذا الدليل إلى **صفات الجمال والرحمة** الإلهية.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا ... ﴿٣٢﴾ ﴾ [إبراهيم].

5- دليل التسخير والتدبير: مثل **دليل العناية**، ويختص **بصفات الجلال والقهر الإلهى**.

﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ

(1) يُعرف **بدليل الاختراع** عند ابن رشد، ويُعرف أيضًا **بدليل الحدوث**.

(2) يقول به من الفلاسفة الفارابى وابن سينا وديكارت ولوك ولايبنتز وغيرهم.

إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [النحل]. لقد قهر الله عَزَّوَجَلَّ هذه الكائنات لتكون فى خدمة الإنسان.

6- **دليل التخصيص (الاختصاص):** ويعنى أن ما نراه فى الكون كان يمكن أن يكون على هيئات عديدة، لكن الله عَزَّوَجَلَّ **اختار منها الهيئة الأفضل**.

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الواقعة].

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ... ﴿٤٥﴾ ﴾ [الفرقان].

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [القصص].

سبحان ربى الذى بث أدلة الوجود الإلهى فى **كتاب الله المنظور** (الكون والأنفس) ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى الْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت] كما بثها فى **كتابه المسطور** ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت].

مجادلة الشر والألم

ربما كانت «**مجادلة الشر والألم**» أهم **الحجج العقلية والفلسفية** التى يطرحها الملاحدة لتدعيم إنكارهم لوجود الإله، ومنها تنطلق العديد من الحجج التى عرضناها فى فصول الكتاب. ولمحورية هذه المجادلة فى الفكر الإلحادى فضلنا أن نؤصل طرحها وتفنيدها فى أثناء عرضنا لمنظومة الإيمان.

بحلول القرن الرابع قبل الميلاد، طرح فيلسوف اليونان القديم أبيقور Epicurus (341 - 270 ق م)، الذى يُعَد بحق أول فيلسوف ملحد، «**مجادلة الشر**» التى عُرفت «**بالحجة الأبيقورية**». وصاغها كالآتى:

هل يريد الإله أن يمنع الشر ولا يستطيع؟... إذًا فهو ليس كلى القدرة.

هل هو قادر على منع الشر ولكنه لا يريد؟... إذًا فهو خبيث وشرير.

هل يريد أن يمنع الشر وقادر على ذلك؟... إذًا من أين أتى الشر؟

هل هو غير قادر ولا يريد منع الشر؟... إذًا لماذا نعتبره إلهًا[1]؟

وقد أجاب فلاسفة اليونان **الرواقيون**[2] على نظرائهم الأبيقوريين بأن ما نرصده من شر يخدم الخير العام الذى يريده الإله.

وتقوم **مجادلة الشر والألم المعاصرة** على تساؤل يتحدى به الملحدون المؤمنين: **كيف يكون الإله رحمن رحيم** (الله محبة فى العقيدة المسيحية) **ومع ذلك يسمح بكل ما يصيب البشر من آلام وشرور.** ويُصَعِّد الملاحدة التحدى مدعين أن زيارة واحدة لمستشفيات علاج سرطان الأطفال كفيلة بأن تدفع الإنسان إلى حظيرة الإلحاد.

وقد قدم **الفكر الإسلامى** العديد من **الدفوع لتلك المجادلة**، أهمها أن الشر والألم ابتلاء من الله عَزَّوَجَلَّ للبشر. ومنها أن الشر يقع بالإنسان عقابًا على ذنب سابق أو جلبًا لخير لاحق. ومنها أن الشر موجود فى بنية الأشياء؛ فالماء الذى من خصائصه الرِّى من خصائصه أيضًا الإغراق، والنار من خصائصها التدفئة وأيضًا الإحراق[3].

ويرى البعض أن هناك **حكمة كامنة** لا نعرفها فى وجود الشر والألم، أو أنهما محض **مشيئة إلهية** لا يُسأل عنها الله عَزَّوَجَلَّ.

كما يقدم الفكر الإسلامى عدة تفسيرات لحكمة وجود **إبليس اللعين**، أهم مصادر الشر، منها أن وجوده ضرورى لاستكمال منظومة الغرض من الحياة، ومنها إظهار قدرة الله على خلق المتضادات، ومنها إظهار صفات الله القهرية، وأيضًا تجلية صفات الله الجمالية من رحمة ومغفرة.

---

(1) تبنى **أبيقور** بعد ذلك القول بإلهين، أحدهما للخير والآخر للشر. وربما كان هذا بداية الحركة الفكرية التى قادت مزدك فى فارس إلى الخروج بديانة الصراع بين إله الخير وإله الشر.

(2) ظهرت هذه المدرسة فى أثينا أوائل القرن الثالث قبل الميلاد، وتقوم كمذهب فلسفى على الأخلاق والدين. أسسها الفيلسوف زينون.

(3) قال **ابن القيم** فى ذلك: أن الشر والألم إما إحسان ورحمة وإما عدل وحكمة، وإما إصلاح وتهيئة لخير يحدث بعدها، وإما لدفع شر هو أصعب منه.

وتتعدد الدفوع والتفسيرات...

وتنطلق حجتنا فى الرد على مجادلة الشر والألم من أن **نظرتنا إلى الشرور والآلام تتوقف على نظرتنا إلى حقيقة الحياة الدنيا والغرض من الوجود الإنسانى فيها**، والتى تختلف لدى المتدينين عنها لدى الماديين (ناهيك عن الملاحدة)[1].

فالمنظور المادى يعتبر أن الحياة الدنيا ليس وراءها غرض، ولا تحكمها غاية، وأن الإنسان إذا مات صار عدمًا، إذ ليس هناك بعث تتبعه حياة أخرى. ومن ثم للإنسان (بل عليه) أن يحَصِّل أقصى ما يستطيع من متع، وبالتالى **يصبح ما قد يشعر به من ألم وكل ما يحجبه عن هذه المتع شر لا جدال فيه.** وانطلاقًا من هذا المنظور، يصبح ما يتعرض له الإنسان من شرور وآلام أمورًا عشوائية تمر به خلال حياته فى دنيا نشأت بأسلوب عشوائى أيضًا، ومن ثم يصبح **القول بوجود إله كله رحمة ومحبة ينظم هذه الحياة هراء وعبث.**

أما **المنظور الإسلامى**، فيعتبر أن **الحياة الدنيا بداية لرحلة أبدية**، يستأنفها الإنسان بعد الموت بالبعث والحساب والجزاء. ويعتبر الإسلام أن لوجودنا فى هذه الحياة غرضًا وغاية، وهى معرفة الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات]، والعبادة هنا بمعنى المعرفة، أى أن **معرفة الله هى الغاية من وجودنا الدنيوى.** وتتحقق هذه المعرفة من خلال إدراك ما لله من أسماء حسنى وصفات عُلى تنقسم إلى مجموعتين أساسيتين: جمال وجلال؛ فأسماء **الجمال** منها الرحمن الرحيم، والغفار، والوهاب، والرزاق، والبر، والرءوف، و... **وأسماء الجلال** منها العزيز، والجبار، والقهار، والقابض، والخافض، والمذل، والمنتقم، والمانع، والضار، والمميت، و... ويتفرع من معرفة الله عَزَّوَجَلَّ **عبادتُه** بالمعنى المباشر، من قيام بطقوس العبادات و**التزام بالأوامر واجتناب للنواهى وكذلك تعمير الأرض.**

وبناء على هذا المفهوم، تصبح الحياة الدنيا بمثابة **«لجنة اختبار» لمعرفة مدى ما حققه العبد من إدراك لأسماء الله** عَزَّوَجَلَّ **وصفاته، بجمالها وجلالها**، ومدى **طاعته لربه** فى القيام بالعبادات

(1) يرجع عجز المتدينين عن تقديم تفسير مقنع للملاحدة لمجادلة الشر والألم إلى محاولة القيام بذلك فى إطار المنظور المادى! ولا شك أن ذلك الأسلوب يخالف بديهيات المنهج العلمى الذى يحتم **أن تتعامل مع مشكلة ما من خلال نظرتك للقضية العامة** وليس من خلال نظرة المعارضين.

والالتـزام بالأوامر واجتناب النواهـى و إقامة الحضارات. وتبعًا لنتيجـة هذا الاختبار يكون مآل الإنسان فى حياته الأخرى، إما إلى نعيم فى الجنة أو عذاب فى السعير.

فى ضوء هذه النظرة للحياة، **يصبح المنظور الدينى قادرًا على تفسير ما يتعرض له الإنسان من شر وألم.** فما يقع فى الأرض من كوارث يتضرر منها البشر، كالبراكين والزلازل والفيضانات، إنما هى **تجليات لأسـماء وصفات «الجلال الإلهى».** وهـى فى نفس الوقت بمثابة **ابتلاء وامتحان** للإنسـان يُجـازَى عليه بالإحسـان إن صبر وبالعـذاب إن ضجر. وبذلك **يتعرف الإنسـان على جلال ربه من خلال هذه البلايا، تمامًا كما يتعرف على جماله من خلال العطايا،** وفى ذلك قالوا **إن من لم يعرف إلا صفات الجمال الإلهى لم يعرف الله** عَزَّوَجَلَّ.

سـؤال يطرح نفسـه هنا؛ وما ذنب **هؤلاء الذين وقع عليهم الابتلاء بالكوارث أو الأمراض** أو... أو...؟ يجيب المنظور الإسلامى عن هذا التساؤل ببساطة؛ فالحياة الدنيا ليست إلا لحظة إذا قورنت بالحياة الأخرى الأبدية، ومن ثم **يهون كل ما عاناه الإنسان فى الدنيا بغمسة واحدة فى نعيـم الجنـة،** كما بَشَّر بذلك رسـول اللـه ﷺ. وكلـما زادت المعاناة فى الدنيـا زاد النعيم فى الآخرة، حتى يتمنى المؤمن لو كانت حياته الدنيا كلها شقاء.

وقد كانت «مجادلة الشر والألم» السـبب وراء إلحاد كثير من الفلاسفة الماديين المعاصرين، ومنهم الفيلسـوف العظيم **سـير أنتونى فلو** الـذى كان زعيمًا للملاحدة خـلال النصف الثانى من القـرن العشرين. وعندما عاد فلو إلى دائرة الإيمـان أعلن أن وجود الشر والألم فى حياة البشر لا ينفـى الوجود الإلهى، لكـن **يدفعنا لإعادة النظر فى الصفات الإلهيـة.** ويعتبر أنتونى فلو أن **لهذه الكوارث إيجابياتها،** فهى تسـتفز قدرات الإنسـان المادية فيبتكر ما يحقق له الأمان، كما تستفز أفضل سـماته النفسـية وتدفعه لمسـاعدة أخاه فى الإنسـانية، وقد كان لهذين العاملين الفضل فى **بناء الحضارات الإنسـانية** عبر العصور. وأضاف الفيلسوف الكبير أنه مهما تعددت أطروحاتنا لتفسير هذه المعضلة فسيظل **التفسير الدينى هو الأكثر قبولًا والأكثر انسجامًا مع طبيعة الحياة.**

النجاة...

نختم المستوى الأول (هل هناك إله) من منظومة الإيمان الثلاثية بطرح أربعة مفاهيم نرى فيها **الخروج من مستنقع الإلحاد:**

المفهوم الأول: ينبغى ألا نعتبر أن البحث فى كيفية حدوث الظواهر (التفسير الآلى = كيف؟ ـ How?) هو وحده التفسير العلمى، فإن التفسير الآلى لا يتعارض عقليًّا مع وجود **تفسير غائى (لماذا؟ ـ Why?)** قصد إليه خالق الكون والإنسان، ومن ثم ينبغى أن نوسِّع من تعريف التفسير العلمى ليشمل الجانبين[1].

نحن لا نرى تعارضًا بين التفسيرين، ولا يتنافى القول بأحدهما مع القول بالآخر (كما يرى الملحدون). فإن معظم أمورنا الحياتية يحكمها الأمران، الغائية والآلية: التهام الطعام؛ هناك غائية وهناك آلية- تناول الدواء؛ هناك غائية وهناك آلية- قيادة السيارة...

إن أهم التعارضات بين العقل فى العصر الوسيط فى أوروبا والعقل فى العصر الحديث، هو أن الأول **سيطر عليه الدين** المسيحى الذى ارتبط بالغائية فقط، بينما **سيطر العلم المادى** المرتبط بالآلية على عقل العصر الحديث.

إن **التمييز، ثم الجمع، بين التفسير الغائى والتفسير الآلى على جانب كبير من الأهمية** لفهم تاريخ الفكر البشرى، وفهم حياتنا كلها، وأخيرًا لإدراك أن لوجودنا غاية وراءها إله حكيم خالق.

المفهوم الثانى: يعتقد الملاحدة أن ما يمكن تفسيره بقوانين الطبيعة لا يحتاج للإله! ومن ثم كلما توصل العلم لتفسير ظاهرة ما اعتبروا أن ذلك ينتقص من رصيد الإله! ودحضًا لهذه الحجة المحورية لدى الملاحدة نبين أن **وجود قوانين الطبيعة التى تنظم عمل الكون لا يتعارض مع كون الله** عَزَّوَجَلَّ **هو الفاعل بكلمة كن** ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس]، فقد شاء الله عَزَّوَجَلَّ أن يلتزم الوجود بطاعة الأسباب، بل اختار الله عَزَّوَجَلَّ (القادر على الفعل بالأمر المباشر) **أن يدير الكون بآلية الأسباب**[2] ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ

(1) لنضرب على ذلك مثالًا: رجل يتسلق جبلًا، ويتساءل الناس عن ذلك. هناك إجابتان مختلفتان؛ الأولى، أنه **يريد أن يشاهد المنظر الطبيعى** من فوق قمة الجبل. وهذا هو **التفسير الغائى** للظاهرة؛ لأنه يطرح الغاية التى يسعى إليها الرجل من التسلق.
أما الإجابة الثانية، فتكون بعرض **سلسلة الأسباب والنتائج التى تنتهى بحركة أَرْجل الرجل**؛ فالطعام الذى تناوله كان مصدرًا لإنتاج طاقة استفاد منها الجهاز الحركى، ثم دفعه مثير خارجى إلى استغلال هذه الطاقة، فتقلصت عضلات الرجل ثم ارتخت ثم تقلصت حتى دفعت فى النهاية جسده إلى أعلى الجبل، وهذا هو **التفسير الآلى** أو **الميكانيكى**.
ويمكن القول إن التفسير الآلى يدفع الحدث من الخلف، أما التفسير الغائى فإنه يجر الحدث من الأمام.
(2) تحدثنا عن هذا المفهوم بمزيد من التفاصيل فى نهاية الفصل الثانى تحت عنوان «قوانين العلم من آليات عمل الإله».

مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ﴿٩﴾ ﴾ [ق]، ﴿ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الشورى].

المفهوم الثالث: يقول البعض، إذا سَلَّمنا بوجود الإله الذى خلق الكون، ووضع فى الطبيعة القوى والقوانين التى تديرها، فما ضرورة القول بمتابعته تنظيم الكون وتدبير شئونه أولًا بأول؟

لقد كان **أرسطو** أول مَن طرح هذا المفهوم مِن **فلاسفة اليونان القديم**. فقال إن الإله بعد أن خلق الكون وَنظَّمَه انشغل بما يليق بسموه وعُلوِّه، انشغل بذاته. لقد حاول الفلاسفة بذلك تنزيه الإله عن الانشغال بما دونه، فكانت النتيجة أن عزلوه عن خلقه، وجعلوه **إلهًا ليس له أهمية فى حياتنا**. وفى **العصر الحديث**، تبنى فريق من العلمانيين هذا المفهوم وصاروا يُعرفون «**بأنصار الديانة الطبيعية أو الربوبيون Diests**».

وقد أغلق **الإسلام** الباب فى وجه هؤلاء الذين يمسكون العصا من المنتصف، فبينت أن **الله يُدَبِّر الوجود طوال الوقت، من خلال وبواسطة القوانين**. فقوة الجاذبية مثلًا لا تعمل بذاتها، بل إن الله هو الذى يمدها بقوتها فى كل لحظة، هذا هو الشأن مع جميع قوانين الطبيعة الأخرى.

وإذا لم يكن الله عَزَّوَجَلَّ قائمًا على الوجود بشكل متواصل، فسوف تتوقف الجاذبية وغيرها من قوى وقوانين الطبيعة عن العمل، بل سوف تنهار الطبيعة نفسها. أى **أن الله يقف وراء الطبيعة وقوانينها، فى كل لحظة، وعلى نحو متواصل**.

المفهوم الرابع: إن أدلة الوجود الإلهى **حتمة «التعقل»**، حتى وإن **عجز العقل عن «تصور»** السبب الأول الذى لا موجد له[1].

وأخيرًا نقول إن القفزات العلمية؛ من قوانين الحركة (نيوتن)، إلى العلاقة بين الكتلة والطاقة (أينشتين)، إلى سلوك الذرة والجسيمات تحت الذرية (فيزياء الكم)، إلى بنية الدنا DNA (جزىء الحياة)، إلى المخ وما تَكَشَّف من أسراره... **تُظهر لنا أبعادًا وأعماقًا أكبر وأكبر** لبراهين الوجود الإلهى وعنايته بالإنسان.

ولا شك أن هذه المفاهيم الأربعة تحل الكثير، والكثير جدًّا، من التعارض الظاهرى بين النظرة العلمية والنظرة الدينية للوجود الذى يتربع على عرشه إله حكيم قادر.

(1) فصلنا ذلك فى الفصل الثانى عشر.

ثانيًا: هل تَواصَل الإله مع الإنسان؟

يعرض الله عَزَّوَجَلَّ **منظومة تواصله مع الإنسان فى القرآن الكريم** فى تسلسل مدهش:

ـ يبدأ الله عَزَّوَجَلَّ بأن **ينفى أن يكون قد خلق الإنسان لغير حكمة**، فيقول: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون].

ـ **ثم ينفى الله** عَزَّوَجَلَّ **أن تكون الغاية من الخلق مجرد اللهو (حاشاه)** قائلًا: ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأنبياء].

ـ يُتبع الله عَزَّوَجَلَّ هذا النفى بإثبات أن هناك غاية من خلق الإنسان وهى **عبادة الله** عَزَّوَجَلَّ ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات] والعبادة هنا بالمعنى الشامل الذى ذكرناه عند حديثنا عن المنظور الإسلامى للغاية من الحياة.

ونُتبع التأكيد القرآنى لتواصل الإله مع الإنسان بعدد من الأدلة العقلية:

1- **دليل الحكمة:** إذا بنى إنسان منزلًا ثم هجره، لا هو أقام فيه ولا أَجَّرَه ولا احتفظ به لأولاده، عددناه غبيًا أبله، **فالإنسان السوى لا يفعل شيئًا إلا لسبب أو غاية، فما أدراك بالإله الحكيم؟** أليس من البديهى أن يخلق الإلهُ الإنسانَ لسبب أو غاية؟

و إذا كان الأمر كذلك، ألا يكون من الظلم ألا **نُوَجِّه إلى هذه الغاية** عن طريق الرسالات السماوية؟!

2- **دليل الفطرة:** جعل الله عَزَّوَجَلَّ فى نفس الإنسان **شوقًا فطريًّا** لمعرفة مصدره والتواصل مع هذا المصدر، وكذلك معرفة الغاية من وجوده **وأيضًا** مآله بعد الموت. وقد بزغت هذه التساؤلات فى العقل الإنسانى منذ وعى بنفسه، وللإجابة عنها وضع الإنسان **الأساطير**، ثم أسس **الفلسفة** التى تقوم على هذه الأسئلة الوجودية المحورية. كذلك زَوَّدَ الله عَزَّوَجَلَّ **العقل البشرى بقدرات تمكنه من طرح هذه الأسئلة** والبحث عن أجوبة عنها.

أليس من المستنكَر أن يَدَعَ الإله الذى وضع فى مخلوقه الإنسان هذه الفطرة دون عون و إرشاد وهداية؟!

3- **الدليل الأخلاقى:** يطرح الفيلسوف الألمانى الكبير إيمانويل كانط ما يُعرف «**بالدليل**

الأخلاقى» للاستدلال على تواصل السماء بالأرض، ويشرحه قائلًا: «إن ظمأنا للماء هو دليلنا على وجود الماء»، ويعنى ذلك أن الطفل يظمأ للماء قبل أن يعرف بوجوده، حتى إن هذا الظمأ هو أكبر دليل على وجود الماء. ويقيس كانط على هذه الحقيقة قائلًا: « **كذلك شوقنا للعدل هو الدليل على وجود العادل**»، فالإنسان الذى يشاهد ما فى الحياة من ظلم لا يستسيغ أن تنتهى حياة الظالم على الأرض وينجو الظالم بظلمه دون قصاص، لذلك يرتاح الإنسان كثيرًا لفكرة البعث والقصاص فى حياة آخرة.

ولا شك أن الإنسان الذى هذا مآله لا ينبغى أن يُترك دون توجيه وإرشاد، وترغيب وترهيب، وهذا دور الرسالات السماوية.

4- **دليل الكتب السماوية:** إذا ثبتت **صحة أحد الكتب السماوية** التى يؤمن المتدينون بإلوهية مصدرها، فلا شك أن ذلك **«دليل مباشر»** على تواصل الإله مع الإنسان. لذلك حرص الله عَزَّوَجَلَّ على أن يقدم الأدلة على صدق أنبيائه وكتبه، بالأسلوب الذى يناسب كل زمان وكل قوم.

وقد ذكرنا فى الفصول السابقة أن الملاحدة قد يقبلون وجود الإله لكنهم يتهربون بشدة من الإقرار بتواصله مع البشر عن طريق الديانات السماوية، لما تحمله من أوامر ونواه تتعارض مع رغبتهم فى أن يحيوا بلا التزامات. لذلك كانت هذه الأدلة الأربعة على التواصل شديدة الأهمية عند مناظرة الملاحدة.

وعندما سُئل **د. عبد الوهاب المسيرى** عن أدلته على تواصل السماء مع الأرض، أجاب إجابة حكيمة تجمع بين الأدلة الأربعة التى عرضناها، يقول د. المسيرى:

من المسلمات العقلية عندى أن الإقرار بوجود الإله يتبعه الإقرار بوجود التواصل (الديانات) بينه وبين البشر. فليس من المعقول عقليًّا أن يخلق الإله الإنسان ككائن عاقل، مدرك لقيمة الوجود (أن يكون موجودًا)، ثم يجعله كائنًا يفنى بالموت، وهو ما جُبل الإنسان على رفضه كلية، وكذلك دون أن يكون لسلوكه فى هذه الحياة توابع وعواقب، أى أن يُترك الظالم يفر بظلمه دون القصاص للمظلوم بالرغم من جعل العدل فطرة فى النفس البشرية. **إن هذا التصور بالنسبة لى منظومة مختلة للوجود، لا أتصور أن يقع فيها إله حكيم قادر.**

ويزيد د. المسيرى النقطة الأخيرة إيضاحًا فيقول: إن استكمال منظومة الوجود تتطلب وجود **حياة أخرى يتم فيها محاسبة البشر على أفعالهم**، خاصة و إننى من المؤمنين بأن **إدراك الخير والشر والصواب والخطأ أمر فطرى فى النفس البشرية. فلِمَ جُعلنا كائنًا حر الإرادة ووُضعت فينا هذه المقاييس إذا لم يتم محاسبتنا عليها؟... إذًا فكلٌّ من سمات الإله (الحكمة) وسمات الإنسان (فطرية الخير والشر وحرية الإرادة) تحتمان أن يبين الإله للإنسان لماذا خلقه، وأن يؤكد له أن الموت ليس إفناء، وأن يرسم له الطريق للاختيار بين الخير والشر، ولا يكون ذلك إلا عن طريق الديانات.**

ثالثًا: أى الرسالات السماوية أَولى بالاتباع؟

بعد أن أثبتنا بالبراهين والأدلة أن الوجود الإلهى حق، كما أثبتنا بديهية الإيمان برسالات سماوية يتواصل بها الله عَزَّوَجَلَّ مع الإنسان، يأتى الدور على سؤال مهم، كثيرًا ما يطرحه الملاحدة الشباب: إذا قلتُ بالإله وبالدين، **فأى الديانات أختار؟ ولماذا؟**

يعتقد البعض أن المفاهيم الدينية مفاهيم نسبية، ينبغى الحكم عليها بمقارنتها بالديانات الأخرى، والحقيقة **أن الدين حق مطلق؛ إذ يمكن تقويمه بشكل موضوعى، عن طريق تقويم مكوناته الأساسية الثلاثة** (محتوى الرسالة - الرسول - الإله)[1].

المُكَوِّن الأول: يختص بمحتوى **النص الدينى وطبيعته**. فالنص الدينى الصحيح ينبغى أن يتميز بالآتى:

1- **أن يُعَرِّف الإنسان بالإله الخالق.**

2- أن **يوضح للإنسان الغاية من وجوده.**

3- تقع المفاهيم الدينية فى إطار **الإدرك العقلى للإنسان.**

4- أن يقدم الدين **البرهان العقلى** على صحة ما يعرضه من مفاهيم ومسلمات.

(1) المفاهيم الواردة تحت هذا العنوان مستقاة من كتاب المهندس الدكتور محمد الحسينى إسماعيل: الدين والعلم وقصور الفكر البشرى. عام 1999 - مكتبة وهبة.

5- **لا يوجد تناقض** بين **المضامين الدينية** التى تطرحها الرسالة.

6- لا يتناقض النص الدينى **مع قانون الفطرة الأخلاقى** للإنسان.

7- لا تتناقض المفاهيم الدينية مع مفاهيم **العلم**.

8- ألَّا يكون منفصلًا عن **واقع حياة الإنسان**.

9- **أن يتحرك معنى النص الدينى** مع **التقدم الحضارى للإنسان**، فثبوت المعنى عند مفاهيم وقت التنزيل يعنى أن الخالق لم يأخذ فى الاعتبار التطور العلمى والحضارى الذى يُجريه على الإنسان على مدار حضاراته.

المكون الثانى: ويختص بمفهوم **الرسول وصفاته**، وينبغى أن:

1- تحدد الرسالة **كيفية اتصال المرسِل بالرسول**.

2- تبين الرسالة أن الأنبياء والرسل **مسئولون عن التبليغ عن الإله**، فلم يأتِ الرسل للتعريف بأنفسهم.

3- تؤكد الرسالة أن الأنبياء والرسل هم **الذروة فى الكمال الإنسانى المحدود**، حيث إنهم يمثلون القدوة البشرية للإنسان. وذلك بمفهوم أرقى كثيرًا من مفهوم أبطال الشعوب فى الملاحم والأساطير.

المكون الثالث: يختص بمفهوم **الإله وطبيعته**. فينبغى فى الدين الحق أن يحتوى على:

1- **برهان الإله الخالق على وجوده** بشكل قاطع، وعلى **فطرة وجوده** فى النفس البشرية.

2- اتصاف الإله **بالكمالات المطلقة**، وأن حكمته وقدرته تتعالى فوق الحكمة والقدرة البشرية.

3- عند عرض صفات الإله لا مفر من استخدام الألفاظ التى نستخدمها فى الحديث عن الإنسان، مثل الوجود والغضب والرحمة والسمع والبصر. فنحن لا نملك مواد أخرى نصوغ منها تصورنا عن الله، وهذا ما يُسَمَّى عند علماء العقائد «**النزعة التشبيهية**». **ولا يعنى ذلك بأى حال من الأحوال أن الإله يُشْبهنا.**

وقد تعامل القرآن الكريم مع هذا الموقف بأسلوب أزال كل لَبْس:

﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى].

فالله عَزَّوَجَلَّ قد استخدم أسلوب التشبيه (ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ)، وقَدَّم لذلك بأن التشبيه يأتى فى إطار من التنزيه المطلق (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ).

هذه البنود الثلاثة هى الخطوط العريضة التى يمكن أن نحكم من خلالها بشكل موضوعى على **صحة أو خطأ الديانة المعنية بالدراسة**.

فبديهى أنه لا مكان لديانة **تصف الإله بصفات إنسانية متدنية، أو صفات وثنية أسطورية. أو تصوره فى صورة حيوان أو مسخ أحمق**، تتعالى عليه مخلوقاته البشرية حكمةً وذكاءً وقدرة. أو تعتبره إلـهًا أحمق متسرعًا لا يدرى ماذا يفعل.

ولا مكان لديانة تخبرنا نصوصها بأن **أنبياءها زناة وقتلة وسفاحون وخونة**.

ولا مكان لديانة **تطفح نصوصها بالفاحشة** فى أحط وأقذر معانيها.

وقبل كل شىء، لا مكان لديانة **لا تعطينا البراهين العقلية الواضحة والكافية** للحكم على صحة ما جاء بها. وقد ضرب الإسلام أوضح مثل على ذلك، فلم يكتفِ القرآن الكريم **بسَوْق الأدلة**، بل **تحدى المنكرين** أن يقدموا البراهين العقلية على صحة ما يقولون: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون].

﴿... قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل].

هذه هى **المقاييس الموضوعية** التى ينبغى الأخذ بها عند اختيار الدين الأَولى بالاتباع.

لماذا الإسلام؟

وقد سُئل المفكر الإسلامى الكبير **د. عبد الوهاب المسيرى** عندما عاد من الإلحاد إلى دائرة الإيمان، **لماذا اختار الإسلام وليس أى دين آخر؟** فأجاب:

«فى البداية، ينبغى أن ندرك أن الرسالات السماوية كلها دين واحد **هو «الإسلام»**، الذى هو التسليم لله الواحد الأحد، لذلك سَمَّانَا أبو الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم: **المسلمون**».

وهـذا المفهـوم بديهى، **فالعقيدة واحدة**، ومن ثم لا يمكـن أن يتواصل الله عَزَّوَجَلَّ مع البشر بديانـات تحمـل عقائد مختلفة. أمـا ما نرصده من اختـلاف بين مفاهيم ما صـار يُعتبر **ديانات مختلفة** فيرجع إلى تأثرها بالفلسفات والمعارف السائدة من حضارة لأخرى.

وتنقسـم ديانات العالم (سـوى الإسـلام) إلى مجموعتين كبيرتين؛ الأولى هـى **عقائد الشرق الأقصى** كالهندوسـية والبوذية وغيرهما، وتشـمل المجموعة الثانية **المسـيحية واليهودية**، وهى منتشرة فى الغرب وبشكل أقل كثيرًا فى الشرق الأوسط[1].

و إذا نظرنا إلى **عقائد الشرق الأقصى**، وجدنا أن القاسـم المشـترك الأعظم بينها هو القول بـ **«وحـدة الوجـود»**، التى تعنى أن الإله قد خلق الوجود من ذاته، وأن الإنسـان بعد الانتهاء من حياتـه الدنيا يعود ليمتزج مع أصله (وهو الإله)، كما تعود قطرة ماء المطر إلى البحر المحيط. ومهما فلسـف معتنقو مفهوم وحدة الوجود عقيدتهم، فإنها تعنى ببسـاطة أن **الإنسان هو الله**، أو على الأقل جزء منه».

وأضاف د. المسـيري؛ «وبالنسـبة لى فإننى أؤمن أن **ثنائية الخالق والمخلوق، والرب والعبد، ثنائية أساسية فى علاقة الإله بالإنسان**، أما أن يوهمنى البعض أن المخلوق هو الخالق، وأننى الإله (أو جزء منه) (وأنا مش واخد بالي) فهذا ما لا أقبله فى حق الإله أو فى حقى».

أمـا بخصوص **المسـيحية واليهودية**، فيقول د. المسـيرى: «تقوم هاتان الرسـالتان فى المقام الأول على معجزات وقعت منذ أكثر من ألفى عام (كالميلاد المُعجز للمسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ و إحيائه للمـوتى وشـفائه للمرضى، ومعجزة عصا موسى وشـق البحر) **والمعجزة لا تكـون دليلًا إلا لمن يعاينها»**. و يضيف د. المسـيرى: « كذلك فالمسـيحية واليهودية تشـتملان عـلى **قدر من وحدة الوجـود** كالتى يقـول بها الهندوس. فالمسـيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أقنوم (صورة) مـن أقانيم الله عَزَّوَجَلَّ. كذلك نجد فى اليهودية أن الإله قد حل فى الشـعب المقدس (وهو اليهود) وفى الأرض المقدسـة (وهى أرض الميعاد)».

أما الإسـلام، فليس للمعجزات دور فيه، فالسيرة النبوية لا تحمل لنا اسم صحابى واحد اعتنق الإسـلام بعد أن عاين أكثر معجزتين توثيقًا؛ وهما الإسراء وشق القمر، اللتين وثقهما

(1) باستثناء هجرة اليهود إلى أرض فلسطين المغتصبة.

القـرآن الكريم. أما براهين وأدلة الألوهية والرسـالة فى الإسـلام فتقوم عـلى **العقل وتنبيه الفطـرة**، لذلـك انتفـت الحاجة إلى رسـالات لاحقة وأصبح **الإسـلام هو خاتم الرسـالات السماوية.**

كذلك فإن **ثنائية الخالق والمخلوق، والرب والعبد شديدة الوضوح فى القرآن الكريم** ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص]. فالآية الأولى من السـورة تثبت خالقًا يأمـر ومخلوقًا يؤمَر بكلمة «قل»، وتنفى باقى السـورة أن يكون هناك أدنى مشـابهة بين الخالق والمخلوق، دون أن ينتقص ذلـك مـن منزلة المخلوق، حتى إن الله عَزَّوَجَلَّ قد أثنى على رسـوله الكريـم ﷺ بمقام العبودية فى كتابه الكريـم ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ...۝١﴾ [الإسراء].

كذلـك كانت **«النسـبية الإسـلامية»** أحـد العوامل المهمـة التي دفعت د. المسـيري لتبني الإسلام من بين الديانات الشائعة في العالم؛ ويعنى بها أن **الله** عَزَّوَجَلَّ **وحدة هو الثابت الذى لا يتحول**، وما عدا ذلك فمتغير، **مما يسـمح بتعدد الرُؤى**. وفى نفس الوقت **لا تؤدى تلك النسـبية إلى العدمية والضياع**، إذ لا تمتد إلى المرجعية النهائية كما نرى فى بعض الفلسفات المعاصرة.

وقد كان **توافق أهم عناصر العقيدة الإسـلامية مع فكر د. المسيرى** من أهم العوامل التي دفعته لاعتناقها، وأقصد بذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ هو «رب العالمين» أجمعين، يشملهم جميعًا بعدله ورحمته. ويختلف الإسـلام بذلك عن باقى الديانات؛ **فالهندوسـية** اشتقت اسمها من الشعوب الهندية لأنها خاصة بهم، **واليهودية** اشـترطت ألا يكون يهوديًّا إلا من كانت أمه يهودية! وقد أُرسـل **المسـيح** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى « كلاب بنى إسرائيل الضالة» (كما ذكر عن نفسه). بذلك يصبح الإسلام هو دين البشرية جمعاء عبر المكان والزمان، كما يصبح أكثر الديانات تسامحًا وقبولًا للآخر.

بعـد **المفاهيـم الأربعة السـابقة** (وضـوح ثنائية الـرب والعبد، محدوديـة دور المعجزات، النسـبية الإسـلامية، عالمية الدعوة) يطرح د. عبد الوهاب المسـيرى **عنصرًا خامسًا** كان وراء اتجاهه للإسلام، وهذا العنصر خاص بالقرآن الكريم كتاب الإسلام المقدس. **فالقرآن الكريم هو كلام الله قطعًا**، ولا يمتزج بكلام الرُسُـل والأتباع والشُراح كما فى ديانات أخرى. كذلك

فإننا نعرف يقينًا متى نزلت كل آية من آياته، ولِمَ نزلت، وعلاقتها بما قبلها وبما بعدها. وهذه **الدقة فى التوثيق** لا تجدها فى أى كتاب مقدس آخر[1].

وقبل أن ينتقل نبى الإسلام (الذى تلقى الوحى) إلى الرفيق الأعلى **كانت كل آيات القرآن الكريم مدونة فى أكثر من موضع**، بالإضافة إلى حفظها **فى ذاكرة عشرات بل مئات من الصحابة.** وقبل انقضاء عامين من وفاة المصطفى ﷺ (فى خلافة أبى بكر الصديق) كان القرآن **مجموعًا ومدونًا فى مصدر واحد** على الهيئة التى بين أيدينا اليوم.

ونستطيع أن ندرك **قيمة وأهمية هذا التوثيق وحجيته** إذا علمنا أننا **لا نعرف شيئًا عن** كتاب الهندوسية المقدس (المعروف بالڤيدا)؛ بنيته - مصدره - تدوينه - توقيته. كذلك فإن كتابات المؤرخين اليهود والمسيحيين تطرح بوضوح العديد من جوانب الغموض فى بنية وتدوين التوراة والإنجيل.

لعل طرح د. المسيرى العقلى، بالإضافة إلى قطعية ما فى القرآن الكريم من براهين عقلية وفلسفية وعلمية على ألوهية مصدره، يعين الشباب الملحد كثيرًا فى الاختيار بين الديانات.

وبذلك تكتمل ثلاثية الإيمان من منظور العقل: الألوهية - التواصل - الرسالة.

إنكار منظومة الإيمان رهان خاسر

فى القرن السابع عشر الميلادى طرح الفيلسوف والرياضى والفيزيائى الفرنسى بليز باسكال[2] ما صار يُعرف بـ«**رهان باسكال** Pascal's Wager»، وهو حجة فلسفية تدعو إلى الإيمان بالإله وبالدين، باعتبار أننا لن نخسر شيئًا إذا سلكنا فى حياتنا بناء على هذا الإيمان ثم ثبت غير ذلك، بينما لو أنكرنا الألوهية ثم ثبت وجود الإله ستكون الخسارة جسيمة فى الدنيا والآخرة.

(1) فى إحدى مناظراتى مع أحد عتاة الملاحدة عبر شبكة المعلومات، بذل جهدًا كبيرًا ليثبت أن هناك تحريفًا قد وقع فى القرآن الكريم. فحرف «هو» ورد مرة فى بعض نسخ المصحف الشريف ولم يرد فى نسخ أخرى، ونفى أن يكون ذلك بسبب اختلاف القراءات. أجبت الملحد بأن ما يذكر هو دليل على دقة توثيق النص، فحرف واحد - إن وافقنا على ما يقول - من بين أكثر من320 ألفًا من الحروف يؤكد الدقة، بل وله تفسير عند علماء تدوين القرآن الكريم. وأضفت ساخرًا: كنت أظن أنك ستثبت أن بعض نسخ القرآن تذكر أن محمدًا ﷺ كان رسولًا بينما تذكر النسخ الأخرى أنه ابن الله عَزَّوَجَلَّ (وحاشاه)!

(2) Blaise Pascal: (1623 - 1662).

وقبل باسكال بأكثر من خمسمائة عام، طرح الفيلسوف الشاعر **أبو العلا المعرى** (973 - 1057) نفس الحجة الفلسفية بأسلوب مباشر واضح دقيق فى بيتين من الشعر، فقال:

قال المُنجِّمُ والطبيبُ كِلاهما: لا تُحشَرُ الأجسادُ، قُلتُ: إليكُما
إن صَحَّ قولُكما، فَلَسْتُ بخاسرٍ، أو صَحَّ قولى، فالخَسارُ عليكُما

وقد سُئل الفيلسوف الكبير الملحد **برتراند رَسِل** يومًا: ماذا لو مُتَّ ثم اكتشفت أنك انتقلت إلى عالمٍ آخر، ووقفت بين يدى إله، وسألك: لماذا لم تؤمن بى؟ بماذا ستجيبه حينئذٍ؟ قال رَسِل: سأجيبه بأن أدلة وجودَك لم تكن كافية.

اعتقد أن الله عَزَّوَجَلَّ سيقول له: لقد كانت **آياتى المُقنعة تملأ الوجود**، بدليل أن ملايين العلماء والفلاسفة آمنوا بى عبر التاريخ. وربما يضيف الإله: لنفترض أن أدلة وجودى لم تكُن كافية، ألم يكن الأليق أيها الفيلسوف **أن تدفع عن نفسك الضرر المُحتَمل؟** هل إذا أبلغك شخصٌ ـ وأنت فى الدنيا ـ أن بيتك يحترق، دون دليل جازم، هل كنت ستهرول إلى البيت لتحرى الأمر ولاستدعاء رجال الإطفاء، أم كنت ستنتظر أن يؤتوك بصورة فوتوغرافية تظهر البيت والنار مشتعلة فيه؟![1]؟.

ليس معنى طرحى لرهان باسكال أن يكون إيماننا بالله عَزَّوَجَلَّ وبالدين قائم على الأخذ بالأحوط، لكنى أبين بذلك أن أفضل الخيارات المتاحة هو السلوك انطلاقًا من أن الله عَزَّوَجَلَّ موجود، سواء ثبت ذلك أم لا. أما قضية الإيمان عندنا فقضية علمية يمكن إثباتها بالبراهين القاطعة بشكل حازم.

القارئ الكريم...

ذكرنا مرارًا فى فصول الكتاب أن الفكر الدينى القاصر (المسيحى والإسلامى) كان سببًا رئيسيًّا فى تبنى الكثيرين للإلحاد، فكيف يجد الإنسان الحائر فى هذا الخطاب ما يروى ظمأه فى تيه الشكوك والحيرة والإلحاد؟!

(1) يقوم هذا الرهان على **«مفهوم الاحتمالية»** الذى تعتمد عليه فلسفة ريتشارد دوكنز الإلحادية، ومع ذلك فإن دوكنز يرفضه!

ينبغى قبل أن نتهم الآخرين بالتقصير فى البحث والدراسة مما أوقعهم فريسة سهلة للفكر المادى، أن ننظر إلى الفكر الدينى نظرة ناقدة، تضع أيدينا على ما فيه من عَوار وتقترح العلاج الذى يجعل من هذا الفكر عامل جذب للعقول الصادقة فى البحث بدلًا من أن يكون مدعاة للنفور من الدين، وبذلك تكتمل رحلتنا مع خرافة الإلحاد.

تجديد «الفكر» الدينى

يتردد فى الفترة الأخيرة اصطلاح **تجديد «الخطاب» الدينى**، بعد أن **صار الخطاب السائد عاجزًا عن عرض الإسلام عرضًا حقيقيًّا صحيحًا**، مما ساهم بشكل كبير فى الموجة الإلحادية التى ظهرت فى بلادنا فى الفترة الأخيرة، كما أسهم فى الصورة السيئة لدى الغرب عن الإسلام.

والمتأمل للخطاب الدينى يجد أن قصوره ليس قاصرًا على الأسلوب والهيئة فقط، بحيث إذا عَدَّلناهما انصلح الأمر، بل إن هذا «**الخطاب**» يعكس قصورًا حَرِجًا فى «**المحتوى**» ينبغى تداركه فورًا، أى يحتاج إلى علاج مكثف ورعاية مركزة كما نقول بلغة الأطباء.[1]

وقد طرح رسول الله ﷺ الآلية التى تُمكِّن الدين الذى نزل فى القرن السادس الميلادى فى جزيرة العرب من أن يكون صالحًا لكل زمان ومكان، فقال:

«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد (يصلح) لها (أمر) دينها»[2].

ويبن الحديث حاجة الأمة إلى (تجديد) و (إصلاح) أمر الدين وإلا صار رجعيًا متخلفًا. لم يقل رسول الله ﷺ من ينبه الأمة أو يعيد الأمة إلى دينها، والفرق واضح جلى. فتغير ظروف البشرية وأحوالها مع تطورها الحضارى يتطلب **ألا تكون المنظومة الدينية جامدة**، وإلا قيدت الحضارة وألزمتها بالتوقف والسكون عند القرن السادس الميلادى، خاصة وأن الإسلام هو خاتم الديانات السماوية، وأنه صالح لكل زمان ومكان.

سبحان الله، ما أكثر ما تتداول الأمة هذا الحديث وما أقل عملها به!

فمنذ أكثر من ألف سنة **أُغلق بابُ الاجتهاد** المنوط به التجديد، فوصلت الأمة إلى الدرك

(1) لا شك أن قضية تجديد الفكر الدينى شديدة التفرع والشمولية، وقد كُتبت فيها مئات الدراسات ولم تستوف حقها بعد، ولم تتقدم إلا خطوات قليلة نحو الإصلاح. لذلك سنعرض فى الصفحات القادمة للخطوط العريضة فى هذه القضية بما يخدم موضوع هذا الفصل وهو الخروج من مستنقع الإلحاد والملاحدة.

(2) هذا الحديث من الأحاديث الصحيحة المشهورة عن الصحابى الجليل أبو هريرة. و(يصلح) و (أمر) فى بعض الروايات. رواه أبو داوود، وصححه السخاوى والحاكم والبيهقى وابن حجر والألبانى.

الأسفل فى الحضارة الإنسانية. وقد وصف الشيخ محمد الغزالى هذا المصير ـ عن حق ـ فقال «إن أمة تلغى عقولها لألف سنة كان الأحرى بها أن تسير على أربع (كالدواب)». لولا ستر الله.

وفى بحث ألقاه روبرت بللا[1] أحد كبار علماء الاجتماع فى مؤتمر عُقد بجامعة هارڤارد عام 1968، قال: إن تعاليم الإسلام «**عالمية**» «**تقدمية**» بل و«**ثورية**» أيضًا. وما مُنيت به هذه التعاليم من إخفاق لا يرجع إلى خطأها أو جمودها كما يتهمها الكثيرون، بل على العكس تمامًا، ربما يرجع إخفاقها إلى أنها كانت فى بعض الفترات الزمنية **أكثر عصرية من أن تنجح**.

تساؤل مُلح يطرح نفسه؛ **كيف تخلفت** دعوة عالمية تقدمية ثورية حتى صارت أداة حَجْر على الفكر وآلية لتجميد المجتمع؟!. إذا قارنا حال الإسلام فى عصوره الزاهرة الأولى مع حاله فى عصور تراجع وتأخر الحضارة الإسلامية، وجدنا أن عِلّتين خطيرتين قد جَدّتَا وترسختا فى الفكر الإسلامى حتى خُيِّل للناس أنهما من أصول الدين. إحداهما، ظهور طبقة تحتكر تفسير النصوص وتستأثر بحق التحدث باسم الدين وإصدار الحكم فيما يوافقه من الآراء والمذاهب وما لا يوافقه، أى أنها «**طبقة كهنوتية**» وإن لم تتسَمِّ بهذا الاسم صراحة. وثانى العلل، اعتبار تلك الطبقة أن ما سبقها من تشريعات وأجوبة وحلول هى «**تعاليم مُلزمة من أساسيات الدين**»، لا يجوز تعديلها أو تغييرها، سواء فيما يختص بأمور العقيدة أو ما يتطرق إلى المعاش[2].

الفكر الدينى الجامد

لقد أفرزت العلتان السابقتان فكرًا لا يتماشى مع دعوة رسول الله ﷺ للإصلاح والتجديد، فصار جديرًا بأن يوصف بأنه فكر جامد مقلد، يكاد يكون هو **المسيطر على الخطاب الدينى** فى الساحة الإسلامية فى الوقت الحالى.

وبالرغم من أن هذا الخطاب بدأ منذ ألف سنة بعد أن أُغلق باب الاجتهاد (عقب وفاة الإمام أبى حامد الغزالى، فقد شهد **طفرات خطيرة فى العصر الحديث**. ويرجع ذلك إلى الهوة السحيقة التى أصبحت تفصل بين القوة والثروة والنهضة التى يعيشها الغرب وبين التخلف والضعف الذى يعيشه معتنقو هذا الفكر فى الشرق. ذلك بالإضافة إلى كراهية هؤلاء للحضارة الغربية لظروف تاريخية ترجع لعهد **الاستعمار الغربى**، فاعتبروا أن فى تراثهم الملاذ من الطوفان الحضارى. بالإضافة إلى ذلك فإن الغالبية العظمى من مروجى هذا الاتجاه فى العصر الحديث **من الشباب** الذى يتسم بالانفعال وسهولة التأثير عليه من

(1) Robert N.Bellah: شغل منصب أستاذ علم الاجتماع بجامعة كاليفورنيا، من المهتمين بعلاقة علم الاجتماع بالديانات.

(2) عن كتاب نحو ثورة فى الفكر الدينى، للدكتور محمد النويهى. حصل على الدكتوراه من جامعة لندن، ورأس قسم اللغة العربية بجامعة الخرطوم، ولد بطنطا بمصر عام 1917. الناشر دار رؤية.

قوى كثيرة ومتنوعة، سـواء من داخل المجتمع الإسلامى أو خارجه، فوقع فريسة **لمصالح وأهواء الآخرين السياسية**.

ويتلخص الفكر الإسلامى الجامد المُقلد فى السعى **للرجوع إلى الماضى** والتمسك بأسلوب الحياة الإسـلامية الذى كان سائدًا فى عصور الإسلام الأولى، بحجة تنقية الحياة من الشوائب والأفكار الهدامة الوافدة من الغرب. وفى سبيل تحقيق ذلك، يطرح أنصار هذا الفكر عقولَهم جانبًا، ويجاهدون **للتقيد الحرفى بالنصوص والتعصب للمذاهب** الدينية التى ينتمون إليها.

واستنادًا لهذا المنهج فى **رفض التجديد و إعمال العقل**،فإن معتنقيه وقفوا ضد أى اجتهاد فى أمور الدين بل والدنيا. حتى أن **شيخ الأزهر** فى أوائل القرن التاسع عشر أصدر فتوى وصف فيهـا المذاهب الأربعة بأنها أفضل ما يكون على الإطلاق، بحجة أن أصحابها هم فقط الذين لديهم العلم والفقه العميق، وأن كل من يبتعد عنهم يتردى من خطأ إلى خطأ، ومن ثم لا يوجد فى زمانه من هم أهل للاجتهاد ولتفسير النصوص المقدسة[1].

تجربة شخصية مؤلمة:

كـما رويت فى الفصل الثانى عشر بعضًا من حواراتى مع الشـباب الملاحدة، فسـأروى هنا تجربتـى الشـخصية المقابلة، والتى تعكـس جمود الفكر المُقلد السـائد وتقديسـه للتراث على حساب:

1) الدين! 2) العلم! 3) العقل! 4) الحق! 5) القيم والأخلاق!

دار الحـوار التالى مع أحد كبار علماء الدين، الذى تبوأ لسـنوات أعلى مناصب الإفتاء فى الديار المصرية. كان الشـيخ يلقى خطبة الجمعة فى المسـجد التاريخى الكبير الذى اعتدنا أن نصلى فيه، فذكر فى الخطبة أن **فترة حمل النسـاء** يمكن أن تصل إلى **أربع سـنوات** تبعًا لمذاهب المالكية والشافعية والحنابلة[2]، وأضاف الشيخ أنه بهذا يفتى.

أذهلنى أن الشـيخ ما زال متمسـكًا بهـذا الرأى الفقهى الذى كان له ملابسـاته وأسـبابه فى المـاضى[3]، بالرغـم من أن العلم القطعى أثبت أن فترة الحمل **لا تتجاوز التسـعة أشـهر إلا بأسبوعين**، فلماذا التمسك بهذا الرأى الذى أثبت العلم خطأه؟!

(1) يتبنى الكثير من رجالات الأزهر الشريف فى العصر الحديث اتجاهًا تجديديًّا مستنيرًا، لكن الفتوى صدرت من شيخ الأزهر فى فترة من تاريخ مصر كان يسيطر فيها الجمود على هذه المؤسسة العريقة.

(2) تصل بعض آراء المالكية بفترة الحمل إلى خمس سنوات.

(3) تروى كتب الفقه المالكى أن زوجة محمد بن عجلان كانت تحمل كل بطن لمدة أربع سـنوات، وهى سـيدة مشـهود لها بالخلق وحسن السيرة، فأفتى الإمام مالك بأن فترة الحمل يمكن أن تبلغ أربع سنوات، وعنه أخذ الشافعى وابن حنبل.

فى جلسة خاصة مع الشيخ قلت له: إن ما تفتى به يخالف العلم الصريح الصحيح. فسألنى: هل بلوغ فترة الحمل أربع سنوات يُعتبر من المستحيلات العقلية أم من المستحيلات الفعلية؟ فأجبته: ليس من المستحيلات العقلية، فأنثى الفيل والحوت تحمل لفترة مقاربة.

فقال: إذن **يمكن «عقليًا»** أن تبلغ فى الإنسان ولو مرة واحدة فقط الأربع سنوات!

فسألته: وهل يفتى المفتون بناء على **الإمكانية العقلية**؟ أم بناء على **الإمكانية الواقعية**؟ وأضفت: إن من الممكنات العقلية أن يصبح شهر رمضان مائة يوم، وألا تغيب الشمس أو تزول عن كبد السماء... أمور كثيرة ليست من المستحيلات العقلية. **إن العلم والدين يتهاويان لو انطلقنا فى أحكامنا من الممكنات العقلية.**

قال الشيخ محاولًا أن يجد تبريرًا لإفتائه بهذا الرأى الخطأ: إن الإسلام حريص على الذب عن سمعة وأعراض النساء بأى شكل من الأشكال. فسألته: وهل يشجع الإسلام على الزنا، أو يقبل أن يُنسب لى طفلٌ ليس ابنى وأن يطلع على عورة بناتى من أم أخرى وهو ليس أخًا لهم، وأن يشارك أولادى الميراثَ تدليسًا؟! وأضفت، بذلك لا تخالف هذه الفتوى العلم والعقل والحق فقط، بل والقيم والأخلاق، وأيضًا تخالف الدين؛ ألم يحدد المولى عَزَّوَجَلَّ فى القرآن الكريم فترة الحمل والرضاعة بعامين ونصف، فكيف يصل الحمل وحده إلى أربعة أعوام[1]؟!!

بعد أن ضاق الخناق تراجع الشيخ وقال: إن **مجمع البحوث الإسلامية** التابع للأزهر الشريف يفتى الآن برأى العلم بأن فترة الحمل تسعة أشهر! سبحان الله!! بالرغم من أن مجمع البحوث يفتى بكلمة العلم، فالشيخ يناصب الدين والعلم والعقل والحق والقيم والأخلاق العداء، **دفاعًا عن قدسية التراث**، واستماتةً من أجل ألا يعيد النظر فى الفتاوى القديمة فى ضوء العلم والواقع.

جمعنى مجلس آخر بالشيخ فى أحد دروسه، وكان يتحدث عن **الناسخ والمنسوخ فى القرآن الكريم**، وكيف ينبغى أن يُلم بهما كل من يتصدى لتفسير آيات الكتاب الحكيم، وأفاض فى تأكيد الأمر لأكثر من ساعة. بعد الدرس ذهبت إلى الشيخ فى مكتبه وقلت له: سيدى لا أستسيغ ما ذكرت من أن ينسخ حديث شريف آية قرآنية أو أن سورة الأحزاب كانت أكبر من سورة البقرة ثم نُسخت معظم آياتها، وأضفت: إن هذا الفهم للناسخ والمنسوخ

---

(1) تأمل هاتين الآيتين: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ... ﴿١٤﴾ ﴾ [لقمان] ،= = ﴿ ... وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ... ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف].
حددت آية سورة لقمان أن فترة الرضاعة (الفصال) تبلغ عامين، كما حددت آية سورة الأحقاف أن فترة الحمل والرضاعة تبلغ عامين ونصف. وبناء على الآيتين يفتى الفقهاء بأن **أقل فترة للحمل هى ستة أشهر**، لكنهم لم يأخذوا بما فى الآيتين بخصوص أطول فترة للحمل!

بـاب خطـير للطعن فى عصمة القـرآن الكريم. فإذا بالشـيخ يقول لى: **إننى لا أؤمن بالناسـخ والمنسـوخ!!** وأؤمن أن كتاب الله عَزَّوَجَلَّ كان على صورته الحالية فى اللوح المحفوظ من قبل خلق الخلق!!

سبحان الله... أيصل **تقديس التراث** إلى هذا الحد من إظهار الحماس لما ننكر؛ بل وتعليمه كحقائق للآخرين؟! لا حول ولا وقوة إلا بالله.

بعدها بسـنوات، اسـتمعت إلى الشـيخ الكبير فى عدد مـن الفضائيـات ووجدته ما زال متمسـكًا بآرائه السـابقة ومنافحًا عنها بجهـد جهيد، أى أن هذا الفهـم لم يعد مطروحًا على المهتمين بالعلم والفقه فقط بل **وصل إلى عقول العامة أيضًا**!!

سمات الفكر الدينى الجامد

إذا تأملنا تجربتى الشخصية المؤلمة والملامح العامة التى ذكرتها للفكر الدينى السائد نجد أنه يتسم بستة مبادئ أو قواعد أساسية:

أولًا: الأخذ بظاهر النصوص، وتقديس التراث وأعمال السلف:

يكتفى الفكـر الدينى الجامد **بظاهر النصوص** فى معظم تفسـيراته دون مراعاة المصلحة والحكمة، وقد أدى هذا الاتجاه إلى قدر كبير من مخالفة مقاصد الشريعة وأصولها الكلية[1].

كما يعتمد هذا الاتجاه فى فهمه للدين على **أقوال السـلف وتفسـيراتهم** اعتمادًا كليًّا، يرقى بها إلى درجة القداسة، بحيث لا يمكن مناقشتها أو إعادة النظر فيها.

وفى نفـس الوقـت، **يتجاهل هذا الاتجاه الأعـمال التراثية العقلية المسـتنيرة** ولا يأخذ بها، عـلى الرغم من أنه يتفاخر بهـذه الأعمال عند الحديث عن نقل أوروبـا المنهج العلمى العقلى عن المسلمين (كما يحدث مع فكر ابن رشد) وأيضًا ليبرر الاستفادة من بعض منتجات الفكر الأوروبى إذا لزم الأمر! وهكذا يسـلك الخطاب الجامد منهجًـا انتقائيًّا حال تعامله مع معظم القضايا الدينية والحياتية.

ثانيًا: إهمال العامل التاريخى فى التشريع

يتفرع من الاعتماد على التراث الاعتقاد بتطابق مشكلات الماضى والحاضر، ومن ثم تصور إمكانية تطبيق ذات الحلول التى طبقت فى الماضى على المشكلات المعاصرة. وقد أدى ذلك إلى

(1) مثـال ذلك تبنى هـذا الفكر عدم جواز تطبيق حد السرقة على من يقوم بسرقة الأمـوال المملوكة للدولة، بدعوى أن للسارق نصيبًا فيها!

محاولة إيقاف عجلة التاريخ بل والعودة بها إلى عصر التنزيل، وكأنهم **يطالبون بتعديل العصر ليطابق النص! بدلًا من قراءة النص فى ضوء الواقع التاريخى**.

ويتجاهل هذا الاتجاه حقيقة أساسية، وهى أن **الإسلام منذ نشأته يراعى الظروف الواقعية**، ويظهر ذلك فى التدرج فى الإصلاح والتغيير والتحريم أيضًا. والأمثلة على ذلك واضحة فى منهج تحريم الخمر والعبيد وملك اليمين وعلاقة الزوج غير المسلم بالزوجة المسلمة وغيرها[1]. يتجاهل المُقَلِّدون هذه الحقائق ويطالبون مسلمى القرن الحادى والعشرين، زمن ثورة علوم الفضاء والاتصالات والإنترنت، أن يعيشوا حياة المسلمين الأوائل فى مكة ويثرب، لكن كيف ولماذا؟ لا إجابة.

لذلك إذا جدت قضية يقوم الفقيه المُقَلِّد **بالتنقيب فى الآراء القديمة** ليختار منها أقربها إلى قضيته ولا يعود إلى مصدرى القرآن والسنة، وكأن العقول قد عقمت عن استنباط الحكم منهما[2].

ثالثًا: عدم التفرقة بين الفكر البشرى والدين

يتجاهل الفكر الرجعى ما كان جَلِيًّا لصحابة رسول الله ﷺ من التفرقة بين النصوص الدينية والخبرة الإنسانية وحصاد العقل. ودليل ذلك أن الكثيرين من الصحابة كانوا يسألون النبى ﷺ عما إذا كان تصرفه هذا أو ذاك محكومًا بالوحى أم بالعقل والخبرة. وقد أرسى الرسول ﷺ مبدأً مهمًّا للتفرقة بين الحالتين فى قوله **(أنتم أعلم بأمور دنياكم)**[3].

رابعًا: إهدار دور العقل والعلم فى الحياة

يتبنى الفكر المُقَلِّد أن **القرآن الكريم يقدم التفسير لكافة الظواهر الاجتماعية بل والطبيعية أيضًا**، دون النظر للقوانين التى تحكمها، وهو ما يعنى إلغاء كل دور للعقل والعلم، وقد أدى ذلك إلى التواكل والتقصير الشديد فى الأخذ بالأسباب، مما أسلمنا إلى حالة **التخلف والتراجع الشديد** التى يعيشها عالمنا الإسلامى حاليًّا.

وبالرغم من ذلك يتعمد الخطاب الجامد فى كل مناسبة **التأكيد على أن الإسلام دين العلم والعقل**، ويؤدى هذا التناقض إلى قدر كبير من **التشويش على العقل المسلم**. كذلك **يهاجم ويُهَوِّن هذا الخطاب من معظم اجتهادات وإبداعات العقل الإنسانى**، لا لشىء سوى كونها نتاج العقل الغربى أو العلمانى أو الملحد أو الماركسى...

(1) يؤكد هذا المعنى قول الرسول ﷺ للسيدة عائشة: «لولا قرب قومك من الجاهلية لهدمت الكعبة وبنيتها على قواعد إبراهيم». حديث صحيح.

(2) أدى ذلك المنهج إلى لبس شديد جعل الكثيرين ـ مثلًا ـ يرفضون **التصوير الفوتوغرافى** لأن الأقدمين قالوا بتحريم التصوير، الذى هو فى وقتهم صناعة التماثيل!!

(3) حديث صحيح رواه مسلم عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

خامسًا: تحريم الاجتهاد فيما ورد فيه نص

يرى الفكر المُقلد أن الأولوية تكون لدلالات النصوص كما فهمها رجاله، ولو كان ذلك على حساب المصلحة. وقد فاتهم قول الإمام على بن أبى طالب (**القرآن حَمَّال أوجه**، إنه خط مسطور بين دفتين لا ينطق، إنما يتكلم به الرجال)، وقد أفرز هذا الفهم العميق العديد من المذاهب الفقهية والعديد من الآراء والمدارس داخل كل مذهب.

وفى مواجهة هذا التعدد أرسى المُقَلِّدون قاعدة **«لا اجتهاد مع النص»**، التى أدت إلى توحيد دلالات النصوص طبقًا لفهمهم، مما يعنى عدم الاعتراف بالتعددية المذهبية السائدة فى الفقه الإسلامى. لقد سادت هذه القاعدة بالرغم من أن الفقه الإسلامى يباهى بعدد من أمثلة الاجتهاد بغير مراد النص التى قام بها **أمير المؤمنين عمر بن الخطاب**، والتى تؤكد **تغليبه للحكمة والقصد على ظاهر النص**، أى أنه غَلَّب العقل على صريح النقل[1].

سادسًا: توظيف «مبدأ الحاكمية»[2] توظيفًا نفعيًّا

لقد أدى بريق شعار **«لا حكم إلا الله»** الذى استقر عبر التاريخ إلى أن استأثر المُقلدون بسلطة تفسير النصوص وبيان حكم الله عَزَّوَجَلَّ، فى مختلف القضايا. وترتب على ذلك وجود حزب واحد فقط، وادعاء أنه **حزب الله**.

وإذا كان من مدعاة الفخر للبشر التسليم بـ**«الحاكمية لله» فى مجال العقيدة**، فالتشريعات الخاصة بأمور الدنيا يحتاج استنباطها للتأويل والاجتهاد[3]. أما إذا أصر الخطاب الدينى على مد الحاكمية لهذا النطاق، فسيقود ذلك حتمًا إلى **العبودية لأحكام طائفة رجال الدين**[4]. وبدلًا من أن تحقق الحاكمية الحرية من ديكتاتورية بعض الحكام فإنها توقعنا فى ديكتاتورية رجال آخرين أكثر خطورة! فإذا كان يمكن مقاومة حاكمية

(1) من هذه الأمثلة أن الفاروق عمر أوقف **قطع يد السَّرُّاق** فى عام المجاعة رغم عموم نص الآية، وتوقفه عن إعطاء **سهم المؤلفة قلوبهم** بالرغم من صريح الآية، **وتحريم الزواج من الكتابيات** مع إباحة النص. وكذلك توقفه عن **تقسيم أرض سواد العراق** ضمن الغنائم بالرغم مما فعله الرسول ﷺ فى أرض خيبر، **وإيقاع الطلاق ثلاثًا بلفظ واحد** واعتباره ثلاث طلقات لا طلقة واحدة، **وزيادة حد الجَلد فى شرب الخمر** عما كان معروفًا فى عهد رسول الله وخلافة الصديق أبى بكر، **والقصاص من الجماعة لقتل واحد**، وغيرها كثير من أمثلة **تغليب المصلحة على صريح النص**.

(2) تعود فكرة الحاكيمة إلى حادثة رفع المصاحب على أسنة السيوف والدعوة إلى تحكيم كتاب الله التى أطلقها الأمويون فى موقعة صفين، كحيلة لاختراق صفوف معسكر الإمام على بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. يسلمنا ذلك إلى كهنوت ككهنوت العصور الوسطى وتحكم الكنيسة وصكوك الغفران.

(3) حديث «أنتم أعلم بأمور دنياكم».

(4) كما يحدث فى المذهب الشيعى حيث تصبح الإمامة جزءًا من العقيدة.

الحُـكَّام والسـعى لتغييرها، فمقاومة حاكميـة الفقهاء توصف بالإلحـاد والكفر والزندقة باعتبارها تجديفًا وهرطقة ضد الله. وبذلك ينتقل الصراع من معركة بين البشر والبشر إلى معركة بين البشر والله عَزَّوَجَلَّ[1].

صيحة تحذير... لماذا التجديد الآن[2]

لم يكن تجديد الفكر الإسلامى لازمًا فى أى مرحلة أو عصر من العصور السابقة قدر لزومه اليوم، حتى أصبح بمثابة **حق للمجتمع وفرض عين على علماء المسـلمين.** فالمتصفح للمواقـع والصفحـات الإلحاديـة على النـت net يدرك بوضـوح أن هناك حمـلات منظمة باحترافيـة عاليـة تركز على **إثارة الشـبهات** حول القرآن الكريم ورسـول الإسـلام ﷺ وكذلك الشريعة الإسـلامية والتاريخ الإسـلامى. وتستند هذه الحملات إلى مقتطفات من كتـب التراث الإسـلامى الخاصة بقراءات وتفسـير القرآن الكريم والسـيرة والأحاديث النبوية والفقه والتاريخ الإسـلامى، كما تستخدم مقولات لكبار الشيوخ والدعاة فى غير موضعها لتدعم الدعاوى الإلحادية.

لذلك لم يعد دعاة الإلحاد و إثارة الشـبهات حول الإسلام فى حاجة لأن يختلقوا حكايات أو يفـتروا أقاويل ليصلوا إلى أغراضهـم، يكفيهم أن يُقَلِّبوا فى كتبنا وأقوالنا ليجدوا فيها فوق ما يشـتهون.لذلك صار تجديد الفكر الإسـلامى أمرًا حتميًّا ملحًا لا يحتمـل التأجيل لتحقيق عدد من الأهداف أهمها:

1- **محو ما شـاب العقيدة من مدخلات**[3]، والتيسير **ورفع الحرج** عن الشعوب الإسلامية، **ومقاومـة البـدع والخرافات** واقتلاعهـا من طريق الإسـلام، **ومحاصرة دعاة التشـدد والتضييق** فى الأحكام.

2- **اسـتقرار وسطية الدين وسـماحته فى نفوس أتباعه**، بحيث تسـتقيم المبادئ والمقاصد العليـا للإسـلام مع فطـرة النفوس وتطلعاتهـا، فتطمئن نفـوس أهله بالعبـادة وتنطلق طاقاتهم بالعمل الصالح من أجل خير المجتمع الإسلامى والإنسانية جمعاء.

---

(1) مثلما حدث فى أوروبا فى العصور الوسطى.

(2) يمكـن القـول بـأن التجديد بدأ مع الإمام الشـافعى منذ القـرن الثانى الهجرى ثـم الإمام أحمد بـن حنبل والكندى والرازى فى القرن الثالث ثم تلاهم أبو الحسـن الأشـعرى والفارابى، وفى القرن الخامس الإمام الغزالى ثم الفيلسـوف ابن رشـد مرورًا بالإمام ابن تيمية، وفى القرن الثامن الفيلسـوف ابن خلدون والإمام ابن قيم الجوزية، وصولًا لجمال الدين الأفغانى فى القرن الثالث عشر الهجرى، ثم الإمام محمد عبده فى القرن الرابع عشر، ونأمل أن تسـتأنف القافلة المسير.

(3) مثل اتهام من يقول بفاعلية الأسباب بالشرك والخروج عن ثوابت العقيدة.

3- ينبغى تجلية ما يتمتع به الإسلام من وسطية للعالم، وليس ذلك تزلفًا للآخرين، ولكن من أجل **تبليغ الدعوة السمحة إلى البشرية جمعاء**، فما أُرسل رسول الله ﷺ إلا رحمة للعالمين.

4- يواجه العالم الإسلامى فى المرحلة الراهنة **تحديات التخلف** التى تفرض التجديد من أجل **تفعيل مشروعات الإصلاح** التى تحتاج إليها الدول الإسلامية فى جميع المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، حتى يصبح العالم الإسلامى قوة فاعلة فى إطار النظام العالمى الجديد.

5- صار التجديد التزامًا دينيًّا **لمواجهة الكوارث التى أنتجها الخطاب الدينى المتطرف**، وأهمها **جرائم الإرهاب** المتستر بالدين فى الخارج والداخل، والتى أصبحت بقعًا سوداء تشوه صورة الإسلام فى كافة أنحاء العالم، وتفرض التخلف على بلاد المسلمين.

6- صار التجديد أمرًا حتميًّا **لتهدئة الحرب العالمية الرابعة**[1] التى يقودها الغرب والولايات المتحدة ضد العالم الإسلامى فى أعقاب تدمير برجى مركز التجارة العالمى فى نيويورك، حتى صار كل حدث إرهابى فى العالم يُنسب للمسلمين.

7- لاشك أن تجديد الفكر الدينى الجامد هو السبيل الأول **لحسر المد الإلحادى المعاصر** فى بلادنا، بعد أن تأكد أن الخطاب الدينى السائد هو المسئول الأول عن هذا المد.

إن **المسئولية هائلة والمهمة شاقة** تنوء بها الجبال، **فلم يعد ينفع فى عالمنا المعاصر السكوت عما فى تراثنا من سوءات وتضارب داخلى تراكم عبر مئات السنين، وتعارُض تبلور فى مناخ ثورة العلم والعقل.** لقد آثر علماؤنا السكوت حتى لا يثيروا مشكلات مع المقدسين للتراث، لكن الأمر لم يعد يحتمل، فلا يكاد يمر يوم أو بعض يوم حتى يسقط بعض شبابنا صرعى بسهام التشكيك.

أسس تجديد الفكر الإسلامى

يتضح مما سبق أن تجديد الفكر الإسلامى ينبغى أن يقوم على الأسس التالية:

1- **نزع القداسة عن التراث**، و إدراك أنه منتج عقلى بشرى، يتناسب مع زمان ومكان ما طُرح من أحكام فقهية[2].

2- عدم الوقوف عند ظاهر النصوص، **والنفاذ إلى المقاصد والحكمة من التشريع**، و إعلاء قيمة المصلحة[3].

(1) كانت الحرب العالمية الثالثة هى الحرب الباردة بين المعسكرين الرأسمالى والشيوعى.

(2) أمرنا الله بعبادته وحده، فلماذا إصرار البشر على العبودية للتراث؟!

(3) تقتضى الرحمة ـ المشتقة من اسم الله ـ التيسير على العباد حتى بمخالفة النص، طالما يحقق ذلك مصلحة المسلمين=

3- تأكيد مفهوم أن **«الحاكمية لله» فى أمور العقيدة**، والالتزام فى الأمور المعاشية بحديث رسول الله ﷺ: **«أنتم أعلم بأمور دنياكم»**.

4- **فتح باب الاجتهاد وإعلاء قيمة العقل**.

5- **إعلاء قيمة العلم والعمل فى الحياة**[1].

6- **التسليم بشرعية تعدد المذاهب الإسلامية** وإسقاطها على واقع المسلمين. وفى نفس الوقت **إباحة عدم التقيد بمذهب معين**، ما لم يتعارض اختيار الأحكام من المذاهب مع ثوابت الدين.

دعوة إلى المصالحة

وكما كانت الرجعية المسيحية فى أوروبا فى العصور الوسطى هى العامل الأول وراء انفجار أكبر موجة إلحادية فى التاريخ، **فما أشبه الليلة بالبارحة**، فالمقدمات هى نفسها فى العالم الإسلامى، وأخشى ما أخشاه أن **يؤدى تشابه المقدمات إلى تشابه النتائج**.

لقد تصادم الفكر الإسلامى الجامد مع جميع جوانب الحياة؛ مع الدين، ومع العقل، ومع الإنسان، ومع التاريخ، ومع العلم، ومع الطبيعة، حتى صار بحق **الدافع الأول للإلحاد بين شبابنا**. لذلك لا يقف تدارك المشكلة عند مجرد تجديد **«الخطاب»** الدينى، بل ينبغى أن يمتد إلى تجديد **«الفكر»** الدينى، ولا أكون مخطئًا إن قلت إلى **«تجديد أو إصلاح أمر الدين»**؛ أليس هذا قول رسول الله ﷺ؟ ولا شك أن ذلك لن يتم إلا بعقد **مصالحة حقيقية (وليست صورية) مع جميع جوانب الحياة**.

أولًا: المصالحة مع الدين[2]

لا شك أن أول ضحايا الفكر الرجعى الجامد ـ فى جميع الديانات ـ هو الدين!

= وحقن دمائهم. ولعل أفضل مثال على **مراعاة الزمان** فى الفتوى بالرغم من مخالفة النص إباحة **رجم الجمرات** فى منى أثناء الحج طوال اليوم، بعد أن تأكد أن الإصرار على الرجم بعد الزوال يؤدى إلى إراقة دماء المئات من الحجيج كل عام. أما **مراعاة المكان** فنجدها فى تغيير **الإمام الشافعى** لكثير من فتاواه بعد الانتقال من العراق إلى مصر.

(1) إن إتقان **العمل** واجب وفرض على كل مسلم كالصلاة، بل يرتفع إلى مرتبة الجهاد فى سبيل الله ﴿...وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴿٢٠﴾﴾ [المزمل].

كذلك لم يسو الإسلام بين المسلم **المتعلم** والمسلم الجاهل، بل جعل الأول فى درجة الملائكة ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران]، وأخبرنا بأن العلم يحقق الخشية لله عَزَّوَجَلَّ ﴿...إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ...﴿٢٨﴾﴾ [فاطر].

(2) عن كتاب «البحث عن العقل: حوار مع فكر الحاكمية والنقل» للدكتور محمد نور فرحات أستاذ فلسفة القانون وتاريخه بكلية الحقوق جامعة الزقازيق، فقيه دستورى حائز على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية 2003، وكبير مستشارى الأمم المتحدة لحقوق الإنسان.

ومـن دواعى الإعجاب بماضينا والتأسى على ما آل إليـه حاضرنا، أننا نملك فى كنوز تراثنا **أمثلـة باهـرة لفقه العقـل** كانت تضىء فى سـماء الدين المنيرة فى مسـيرة الصحوة الإسـلامية الحقيقية، وتلك نجدها:

عند الصحابة الأوائل، فى **إيثارهم للمصلحة** كما فى فقه **عمر بن الخطاب** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [1].

وعند **فقهاء الرأى** و إمامهم **أبى حنيفة النعمان** صاحب **الاستحسان**[2].

وفى **فقه المصالح**[3] عند المالكية والحنابلة.

وفى تعاليـم الثائـر الفقيـه العظيـم ابـن إسـحق الشـاطبى صاحـب **نظريـة المقاصـد فى الشريعة**[4].

وفى تعاليم **فقه المصالح**[5] الذى وصل إلى ذروته على يد الإمام **نجم الدين الطوفى** فى القرن الثامن الهجرى.

وفى تعاليم ابن حزم الظاهرى الذى أطلق الحرية لعقل المسـلمين بقوله بمبدأ **اسـتصحاب أصل الإباحة**[6].

وفى آراء الإمام ابن قيم الجوزية الذى **نهى عن الاستنان بالرجال وتقليدهم**.

ومـن عجب أن هذه الذخائر الفقهية العقلانية تُطْمَر فى صدور فقهاء النقل المعاصرين، ويقتصرون ـ على أحسن الفروض ـ على تناولها فى قاعات الدرس أو دوائر البحث الأكاديمى دون أن يتم اسـتدعاؤها إلى ساحة الخطاب الإسلامى المتداول اليوم. **فهل هو نسيان يرفَع عن أصحابه الوزر أم تجاهل مُتعمد يدانون به؟.**

و إن شـئنا أن نرتب **طبقات الفكر الإسـلامى** وفقًا لاعتمادها على النقل واقترابها منه إلى **اعتمادها على العقل** لكان ترتيبها كالتالى:

---

(1) تحدثنا عن بعض أمثلة إيثار المصلحة فى فقه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب منذ قليل.

(2) الاستحسـان عنـد أبى حنيفـة هو عـدول المجتهد عن اتباع قياس جـلى إلى قياس خفى أو عـن حكم كلى إلى حكم استثنائى، لدليل انقدح فى عقله رجح له هذا العدول.

(3) فقه المصالح هو الفقه الخاص بحفظ الأصول الخمس التى هى مقصود الشارع (حفظ الدين والنفس والنسل والعقل والمال).

(4) يرى الإمام الشاطبى أن الشريعة تهتم جملة وتفصيلًا برعاية مصالح العباد، ومن ثم لا ينبغى اعتبار أحكام الشريعة أمورًا تعبدية مطلقة.

(5) يعتـبر الإمام الطـوفى (ثالث أكبر فقهاء المالكيـة) أن المصلحة العقلية للأمة وللأفـراد فى المعاملات والعادات دليل شرعى «**يجب**» الأخذ به بين بقية مصادر التشريع.

(6) الأصـل فى **الأمـور النافعـة** التى يرد فيها من الشرع حكم معـين هو الإباحة، كما أن الأصل فى **الأشـياء الضارة** هو الحرمة.

المُحَدِّثُون «أى رواة الحديث» **والمفسرون** الذين يعتمدون على الرواية فى التفسير.

ثم **فقهاء الحديث** الذين يعتمدون أساسًا على النقل والرواية.

ثم **فقهاء الرأى** الذين يقتربون من العقل والدراية.

ثم **المتكلمون** من الأشاعرة وأهل السنة.

ثم **المتكلمون** من المعتزلة وأهل العقل.

ثم **الفلاسفة**.

ويأتى خارج هؤلاء جميعًا «**المتصوفة**» الذين يهتمون بالحقيقة لا بالشريعة، ويعتمدون على البصيرة لا على الفهم، وينأون بأنفسهم عن العقل والنقل معًا.

وإن المرء إذ يتجول بين هذه البساتين الفيحاء للفكر الإسلامى ليأخذه العجب والإعجاب والزهو والانبهار بهذه الثمار المختلفة الطعم والمذاق التى حفل بها تاريخ الفكر الإسلامى. ثم أليست تلك الثمار هى طرح شجرة «الدين»؟ فإذا اختفت جميعها ـ فعليًّا ـ من الساحة ولم يبق إلا **الفكر الرجعى**، أليس الخاسر الأول هو دين الإسلام؟ أليس من مخاصمة الدين أن يتمسك الرجعيون بحرمة زواج الحنفى من الشافعية؛ لأنه يُشَكُّ فى إيمانها؟! ثم يوافق بعضهم على هذا الزواج قياسًا على الزواج من أهل الكتاب!!

ومن ثم لا تكون المصالحة مع الدين إلا **بانتقال هذه الثمار اليانعة من الأسفار المطوية إلى الحياة اليومية الفاعلة**.

ثانيًا: المصالحة مع العقل

لا يقبل الفكر الجامد دورًا للعقل فى الدين إلا التحقق من صحة إسناد أحاديث رسول الله ﷺ، وحتى فى هذه يخبرنا الإمام ابن قيم الجوزية (المولود عام 691هـ) بأن المُقَلِّدين والفقهاء المتأخرين كانوا يصححون الحديث النبوى أو يضعفونه تبعًا لموافقته لمذهبهم!! أى أنهم كانوا **يُحَكِّمون المذهب فى الحديث** ولا يُحَكِّمون الحديث فى المذهب[1]!!، وفى نفس الوقت يصر هؤلاء على **التأكيد فى خطابهم على دور العقل** المحورى فى المنظومة الإسلامية، ويضعون فى ذلك المؤلفات العديدة المطولة.

إن ما نصبو إليه فى عملية المصالحة أن يدرك المُقَلِّدون ـ بحق ـ أن **الإسلام يجعل للعقل دورًا محوريًّا** ليس له مثيل فى أى منظومة أخرى، ويتمثل هذا الدور فى:

(1) فى كتاب «إعلام الموقعين عن رب العالمين».

1- الاستدلال على **وجود الله** عَزَّوَجَلَّ **وصحة دين الإسلام**.

2- فهم النصوص فهمًا يسمح بالنفاذ إلى **جوهرها وحكمتها**.

3- **الاجتهاد** في استنباط الأحكام في ضوء ما يستجد من ظروف حضارية.

4- **مراعاة حكمة التشريع والانحياز إلى المصلحة**، وهو ما تنبه إليه الصحابة قبل ظهور علم الفقه وأصوله، حتى و إن تعارض ذلك مع نص من النصوص[1].

ولا ينبغي الاعتداد بما يردده المُقَلِّدون؛ **وأين نحن من صحابة رسول الله ﷺ وتابعيه**، ونحن نجيبهم بأن كل قوم أدرى بعصرهم، ولا أحسب أن المصلحة تخفى على أى ذى عقل منصف.

كما لا يصح الاحتجاج بأن **الله** عَزَّوَجَلَّ **هو المشرع وهو أدرى بمصلحتنا**، فالصحابة والتابعين كانوا يعلمون ذلك، لكنه لم يمنعهم من الاجتهاد لمصلحة الأمة، وهذا بعض ما فهموه من معنى الخلافة من الله عَزَّوَجَلَّ في الأرض، وقد حسم رسول الله ﷺ الأمر حين قال: **«أنتم أعلم بشئون دنياكم»**.

ثالثًا: المصالحة مع الإنسان

عندما يهبط الفكر الجامد بالعقل البشرى عن منزلته بالرغم من أنه المخاطَب والمكلَّف والمحاسَب من قِبَل المولى عَزَّوَجَلَّ! وعندما يعتبر هذا الفكر الإنسانَ عاجزًا عن إدراك مصلحته وهو الخليفة من الله في الأرض! وعندما يعتبر الإنسان عبدًا لآراء قدسها و إن ثبت خطأها دينيًّا وعلميًّا وعقليًّا و إنسانيًّا وأخلاقيًّا! وعندما يُفرَض على الإنسان سلوكيات لا إنسانية كزواج الصغيرات وختان الإناث و إرضاع الكبير! أقول عندما يدعم الفكر الديني الجامد ذلك كله فإنه **ينزع عن الإنسان إنسانيته بل و يناصبه العداء**.

ومن أجل استنهاض الفكر الديني السائد للمصالحة يكفي أن **نُذَكِّره بمنزلة الإنسان** دون الدخول في التفاصيل، وليكن ذلك ببعض الأدلة من القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة وحكم الحكماء:

❐ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ... ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة].

❐ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ ... ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة].

(1) هذا ما مارسه عمر بن الخطاب فيما عرضنا من أمثلة، وأيضًا ما مارسته أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حين وجدت أن= = الحكمة من السماح لإماء الله بارتياد المساجد قد انتفت فقالت قولتها: لو علم رسول الله ﷺ ما أحدثت النساء لمنعهن المساجد مثلما مُنعت نساء بنى إسرائيل.

- في الحديث القدسي: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»[1].
- «لزوال الدنيا أهون عند الله عَزَّوَجَلَّ من سفك دم مسلم بغير حق»[2].
- وتحسبُ أنك جُرمٌ صغيرٌ وفيك انطوى العالمُ الأكبرُ[3].

هذا هو الإنسان يا أصحاب الفكر الجامد، فهرولوا للمصالحة معه.

رابعًا: المصالحة مع التاريخ[4]

لا شك أن إحدى الآفات الكبرى في العقل العربي الإسلامي المعاصر هي **غيبة القدرة على الإدراك العلمي للتاريخ**، بل وفتور الرغبة في هذا الإدراك. فنحن أكثر ميلًا وتعاطفًا وحبًا للرواية والقصة والأسطورة منا تقبلًا وفهمًا للتاريخ كحقيقة موضوعية حدثت في الزمن الماضي. والفرق بين **منطق القصة ومنطق التاريخ** أن القصة ننطق بها نحن، فهي رواية للتاريخ كما نريد لا كما حدث فعلا[5].

إن **نظرتنا الأسطورية للتاريخ** تقول لنا: كنا أمجادًا وعلينا أن نعود لتراثنا كي نعود أمجادًا مرة أخرى، لذلك «**لن يَصْلُح آخر هذه الأمة إلا بما صلُح به أولها**»[6]. ولم يتوقف هؤلاء الأسطوريون للحظة واحدة لتدبر الأسباب المطلوب الأخذ بها لينهض حال آخر هذه الأمة، وفاتنا أيضًا أنه لا يَفسدُ هذه الأمة إلا بما فسد به أولها.

إن التاريخ هو **تاريخ أفراد مسلمين وليس تاريخًا إسلاميًّا**. ويحفل هذا التاريخ بنماذج وأنماط مختلفة من **الخلفاء**؛ منهم الأتقياء ومنهم الجبارون ومنهم الماجنون ومنهم من اتسعت صدورهم لمعارضة الرعية وآخرون بطشوا بشراسة بأية معارضة، ومنهم ومنهم. ويحفل تاريخنا

(1) رواه الإمام مسلم في حديثه عن أبي هريرة.
(2) في سنن النسائي وجامع الترمذي وسنن ابن ماجة وسنن البيهقي، عن عبد الله بن عمر، صححه الألباني.
(3) من أقوال الإمام علي بن أبي طالب.
(4) عن كتاب «البحث عن العقل، حوار مع فكر الحاكمية والنقل» للدكتور محمد نور فرحات، مكتبة الأسرة.
(5) لا يخلو تاريخ المسلمين كما كتبه ابن كثير وابن الأثير وابن جرير الطبري وابن طباطبا العلوي وابن إسحق، ثم ابن إياس والجبرتي، في كثير من أجزائه، من جوانب قصصية أسطورية تنأى عن التصديق العقلي ولا تقف أمام التحليل العلمي، وهو ما يستغله الملاحدة للهجوم على الإسلام. وما زال الحال على ما هو عليه في **واقعنا المعاصر**، فسمينا هزيمة 1967 بالنكسة وحرب الخليج بأم المعارك!.
(6) قول تردد قديماً على لسان زياد بن أبي سفيان متوعدًا أهل البصرة بالقتل!

أيضًا **بالغزوات** التى كان بعضها جهادًا فى سبيل الله وبعضها رغبات توسعية. ويحفل **بالفتن** التى كانت صراعًا بين بشر قصد بعضهم الجهاد ونصرة الإسلام وبعضهم حركته أطماع النفس والتطلع إلى الحكم. لذلك **لا ينبغى التصدى للدفاع عن كل حدث فى تاريخ المسلمين وكأنه هو الإسلام**.

إن الدعوة إلى المصالحة هى **دعوة إلى عدم تديين التاريخ**، أى دعوة إلى احترام موضوعيته وقراءته قراءة صحيحة تحقق عددًا من الفوائد أهمها:

1- أن ندرك أن **أول هذه الأمة قد صلح بنهضة العقل وقوة العزيمة** التى يحققها الإيمان وفتح الأبواب أمام امتزاج الثقافات. وأن **آخرها قد فسد** لغلبة المصالح والمطامع السياسية لدى فئات المسلمين وطوائفهم على حساب صالح الأمة العام، وانغماس الحكام فى اللهو والترف، وكثرة حركات الانشقاق والخروج.

2- أن ندرك أن **المجتمع المثالى يتحقق بالتغيير إلى ما هو أحسن** (وهذا هو فهم الغرب المعاصر) وليس بالثبات والقرار كما يؤمن العقل الشرقى الذى يحركه حنينه الرومانسى إلى الماضى دون النظر إليه نظرة نقدية. هذا بالرغم من أن القرآن الكريم يدين إدانة صريحة الركون إلى التقليد ومحاكاة الماضى[1].

3- الارتياح من عبء الدفاع عن مواقف سلبية فى التاريخ الإسلامى، وهو أحد أبواب الإلحاد التى رصدناها بين شبابنا.

وأخيرًا نقول، إذا كان النظر فى الآفاق هو **قراءة للمكان**، وكان النظر فى الأنفس هو **قراءة للداخل**، فإن النظر فى التاريخ هو **قراءة فى الزمان**. وإذا كان للآفاق والأنفس قوانين تحكمهما فإن **للتاريخ قوانين تحكمه**، لذلك حثنا القرآن الكريم على قراءة التاريخ فى آية تكررت ست مرات على نحو فريد بأسلوب استنكارى عاتِب على من لا يستفيد من أحداث التاريخ[2]:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ...﴿١٠﴾﴾ [محمد].

---

(1) ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الزخرف]، ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس]، ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنبياء]، ﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [الشعراء]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [لقمان].

(2) جاء التساؤل ثلاث مرات بلفظ «أفلم»، وجاء ثلاث مرات بلفظ «أولم».

خامسًا: المصالحة مع العلم

لم يظهر التعارض بين الفكر الدينى الرجعى والعلم إلا **بعد الثورة العلمية فى أوروبا**، حين فوجئ هذا الفكر بمفاهيم علمية جديدة فى مجالات الكونيات ونشأة الإنسان تتعارض مع ما جاء فى التفسيرات التراثية للنصوص المقدسة. وتمشيًّا مع منهجهم **فى تقديس التراث**، بادر الرجعيون إلى رفض المفاهيم العلمية الجديدة بدعوى أنها فرضيات ومفاهيم لم تثبت أو نظريات وليست حقائق علمية[1].

و إذا انتقلنا إلى العالم الإسلامى، نجد أن **المفسرين التراثيين** قد بذلوا أقصى الجهد كما لجأوا إلى كلمة العلم فى عصرهم حين تصدوا لتفسير آيات القرآن الكريم ذات الدلالات العلمية، ومن ثم فلهم عذرهم إذا اختلفت تفسيراتهم عما توصل إليه العلم الحديث. أما **المعاصرون** فليس لهم أى عذر فى التمسك بالقديم على حساب كلمة العلم الحديث. **ومما زاد الطين بِلة أن جعل المُقلدون من التفسيرات التراثية حَكَمًا على صحة المفاهيم والنظريات العلمية**.

ولعل مفهوم **التطور البيولوجى** ـ الذى يتبنى نشأة الجسد الإنسانى بالتطور عن كائنات أدنى منه ـ من أشد مناطق الصدام سخونة. فبالرغم من أن مفهوم التطور أصبح الحقيقة المحورية فى علم البيولوجيا، فما زال الفكر المُقَلِّد يتمسك بالتفاسير التراثية لآيات خلق الإنسان فى القرآن الكريم. بل و يكيلون للعلم الاتهامات، تارة بالجهل! وتارة بالتآمر على الدين[2].

ومن أجل تحقيق المصالحة بين العلم والفكر الدينى الرافض له كان هذا الكتاب الذى بين يديك. وهناك سبيلان على أنصار هذا الفكر أن يختاروا بينهما للخروج من **التضاد الظاهرى الذى فرضوه علينا بين العلم والدين**:

السبيل الأول: الإقرار بأن القرآن الكريم ليس بكتاب علم، وأن يرجعوا فى القضايا العلمية إلى العلماء، ثم يبذلوا أقصى الجهد فى **تأويل آيات القرآن الكريم** فى ضوء المفاهيم العلمية الثابتة.

السبيل الثانى: الفصل بين العلم والدين فى القضايا العلمية، وعدم محاولة الربط بينهما. فعلى سبيل المثال عند الحديث عن نشأة الإنسان نقول إن كلمة العلم هى كذا وكلمة الدين

(1) نؤكد ما ذكرناه فى الفصل الثانى من أن من النظريات العلمية ما هو فى حجية حقائق العلم وقوانينه، ومثال ذلك نظرية الجاذبية الأرضية ونظرية فيثاغورث فى المثلث قائم الزاوية.

(2) طرحنا فى الفصل السادس والسابع **مفهوم التطور الموجه** الذى يجمع بين كلمتى العلم والدين فى هذا المجال. كما تناولنا الربط بين كلمتى العلم والدين فى نشأة الإنسان بتفصيل كبير فى كتابنا «**كيف بدأ الخلق**»، الفصلين الثانى عشر والثالث عشر، نيوبوك، الطبعة السابعة، 2017.

هـى كذا، وبذلـك يصبح **ما لقيصر لقيصر ومـا لله لله**، وهو المنهج هو السـائد فى الغرب فى تحديد العلاقة بين العلم وبين الديانة المسيحية.

ومـا أحسـبنا كمسـلمين فى حاجة إلى المنهـج الثانى، فليـس فى القرآن الكريم أو السـنة الصحيحة سـوءة نحاول إخفاءهـا أو نعجز عن التوفيق بينها وبين العلـم. لقد آن الأوان من أجـل تحقيـق المصالحة مـع العلم أن **يتوقـف المُقَلِّدون عن القيـام بدور الحَكَم عـلى المفاهيم والنظريات العلمية**.

سادسًا: المصالحة مع الطبيعة[1]

نشبت بين أنصار بعض مدارس الفكر الإسلامى والطبيعة خصومة شديدة منذ اتهموها ـ بحسن نية ـ بالفوضى والعشوائية! وتعود بدايات تلك الخصومة إلى اعتقاد **الأشاعرة** أن تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ وتأكيد القدرة الإلهية يتطلب **الإسراف فى تأكيد عجز الذات الإنسـانية وعفوية الطبيعة، فتبنوا رؤية تدميرية للعالم**!

لقد **نَفَى الأشـاعرة أية علاقة بين الأسباب والنتائج** (بلغة علم الكلام: نفوا أى رابط عِلِّى سـببى بين الأحداث = نفوا العِلِّية أو السـببية) ورأوا أن القول بالأسـباب يتعارض مع طلاقة قـدرة وأفعال الخالق، ومن ثـم **اعتبروا القول بالسـببية شرك**! فضلًا عـن اعتقادهم أن القول بالسببية يمثل خطرًا على **فكرة المعجزة** التى تخرق الأسباب.

ومـن أجل نفى قوى وقوانين الطبيعة كأسـباب مؤثرة، وضع الأشـاعرة **«نظرية الاقتران والعادة»** التى ترى أننا نفسر تتابع حدثين (كتسـخين الماء والغليان) باعتباره علاقة الأسباب بالنتائـج بينـما هو فى الحقيقة **مجـرد اقتران**، أى لا علاقة سـببية بين التسـخين والغليان، وأننا نحـن الذيـن تصورنا هذه العلاقة[2]! بهذا الطرح الأشـعرى، لم يعد هناك قانون ولا نظام فى الطبيعة، وبهذا غُلَّت يد العقل تمامًا، وكان ذلك إيذانًا بليل عجز العقل الإسلامى، فاستحق أن يطلق الفلاسفة على هذه النظرية اصطلاح **«كارثة الأشاعرة»**[3].

(1) عـن كتـاب «الطبيعيـات فى علـم الكلام: من المـاضى إلى المسـتقبل» للدكتورة يمـنى طريف الخـولى. رؤية للنشر والتوزيع، 2010.

(2) لذلك صرنا نقرأ فى كتب الأشـاعرة أن السـكين لا تقطع ولكن القطع يحدث عند حد السـكين، وأن النار لا تحرق لكن الحرق يحدث عند النار. ولم يقدم لنا الأشاعرة تفسيرًا مقنعًا لِمَ أمر الله عَزَّوَجَلَّ النار أن تكون بردًا وسلامًا على إبراهيم، ألا يعنى ذلك أن الحق عَزَّوَجَلَّ لو تركها دون أمر لأحرقت! أى أن الإحراق من خصائص النار.

(3) من المثير للدهشـة أن ديفيد هيوم (أكبر فلاسـفة الإلحاد فى القرن الثامن عشر) يقول أيضًا بعدم فاعلية الأسـباب، ويوافق على مفهوم الاقتران والمادة، وذلك ليثبت عشوائية الوجود وعدم خضوعه للقوانين ليدعم مفاهيمه الإلحادية. معنى ذلك أنه يتفق مع الأشاعرة فى النظرة إلى الأسباب وإن كان يتضاد معهم فى الهدف!

وفى المقابل، تبنى المعتزلة[1] **«مذهب الطبائع»** الذى يقول بأن الله عَزَّوَجَلَّ قد مَيَّزَ كل شيء بطبيعة ثابتة يحدث الفعل بمقتضاها، كالحرق للنار والرِيّ والإغراق للماء. وضع المعتزلة بذلك فرقًا جوهريًا بين عالم الطبيعة الحتمى وعالم الإنسان الحر المختار، ولم يسقطوا فى هوة نفى الحرية الإنسانية بناء على حتمية قوانين الطبيعة كما فعل فلاسفة أوروبا. وقد سُميت هذه المقابلة بين مذهب الطبائع ونظرية الاقتران والعادة بـ **«دراما المعتزلة والأشاعرة»**.

ومن الأشاعرة، يقول بمذهب الطبائع **الإمام أبو حامد الغزالى**، كما يمد **ابن خلدون** (الأشعرى) مذهب الطبائع من عالم الطبيعة إلى عالم العمران والإنسان، فيرى أن المجتمعات البشرية تخضع فى حركتها لقوانين اجتماعية. كذلك تبنى **الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم** مذهب الطبائع، وعرضاه عرضًا عميقًا. وبخلاف الغزالى وابن خلدون نجد الأشاعرة جميعًا ينهالون بنقد عنيف على مذهب الطبائع ويصمون القائلين به بالشرك!.

وإذا كان **علماء الكلام المعتزلة** لم يتورطوا فى اتهام الطبيعة بالفوضى والعشوائية، فإنهم **سقطوا فى خصومتها** حين أعلنوا صراحة أنهم يستخدمون الطبيعة فقط من أجل إثبات وجود الله، وليس لدراستها وتحليلها وفهمها للسيطرة عليها والانتفاع بها، إذ إن الطبيعة ـ عند هؤلاء ـ مجرد حامل لأفعال الإرادة الإلهية. بذلك أصبح استخدام الطبيعة عند المعتزلة **استخدامًا رأسيًا** يرقى بنا إلى ما فوق الطبيعة، ونحن نرحب بذلك بشرط أن نقرنه **باستخدام أفقى** يجعلها عالمًا حيًا للإنسان، يسكن فيه ويتواصل فيه مع الآخرين ليحقق رسالته وخلافته.

وتتفاقم المشكلة، ويختفى النظر فى الآفاق واستثمار الطبيعة، ويصبح الواجب الشرعى بديلًا عن الواجب النظرى، وتتضخم الشعائر والعقائد (هل يؤمن المؤمن بخمسين أم بعشرين عقيدة؟). لقد ضمر الفكر الموضوعى وتقلصت العلوم التطبيقية والطبيعية، وتم التمثيل بالطبيعة وهدمها.

لذلك يُرجع البعض **انتكاسة الحضارة العربية** إلى **محنة المعتزلة** التى تلاشى فيها فكرهم وسطوتهم، ولولاها لكان للتقدم العلمى فى القرن التاسع الميلادى فى الدولة الإسلامية شأن آخر أى شأن.

المصالحة

فى العصور الوسطى، استمد رجال الكنيسة فى أوروبا سلطانهم من أنهم أقدر البشر على قراءة وفهم الكتاب المقدس، بينما أصر العلماء على أنهم أقدر على قراءة كتاب آخر لا يقل

(1) أصحاب المدرسة العقلية فى الإسلام.

عـن الأناجيل عظمـة ودلالة على قدرة الرب وبديع صنعه، إنه كتـاب الطبيعة المجيد، أو قل **توراة الطبيعة**[1].

قبل ذلك بمئات السـنين رأينا أبا الهذيل العلاف والنَّظَّام وابن الهيثم والبيرونى وابن رشـد **يجمعـون بين العلوم الطبيعية كعلوم تطبيقية وبـين دلالتها على وجود الله وعلى التوحيد.** لقد كنا الأسـبق فى الانتقال الجدلى بين قراءة الكتاب المقدس وقراءة كتاب الطبيعة (كتاب الله المسـطور وكتاب اللـه المنظور)، فوصلنا إلى **تعقيـل الطبيعة وتطبيع العقـل**. لكن **ما جدوى الأسـبقية التاريخية؟!**. لقد جعل العلم الغربى الطبيعة والعقل صنوين، بينما يكشـف العربى المسلم المعاصر عن عجز مؤسف وتخلف مشين عن مجرد مواجهة الطبيعة.

والمطلـوب للمصالحـة مع الطبيعة أن يـدرك الفكر المُقَلِّد أن اللـه عَزَّوَجَلَّ هو الذى وضع الخصائص فى الأشـياء، وهو الذى ينظم العلاقة بينهما بقوانين الطبيعة، أى أن يدركوا **اتساق مذهب الطبائع مع الإرادة الإلهية**.

إن المصالحـة تتحق عندما نصبح **وسـطًا بين طرفين**؛ طرف يتنكـر للطبيعة والحس، أغرق فيـه المُقَلِّـدون، وطرف يقدس الطبيعة والحس؛ أغرق فيـه الماديون. إن الحق عَزَّوَجَلَّ يمزج بين الطرفين ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت]، فالآيـة الكريمة تبين أن الحس (سـنريهم) والطبيعة (الآفاق والأنفس) سـيصبحان الباب الواسع للإيمان. أى أن براهين الألوهية ستنطلق من تأمل الطبيعـة والتفكر فيها. وهذا ما تدعو إليه أسـتاذتنا د. يمنى الخولى فى دعوتها **«نحو علم كلام جديد»**.

وفى ذلك يقول **الفيلسوف الكبير محمد إقبال**: «كان أفلاطون وفيًّا لتعاليم أستاذه سقراط فقـدح فى الإدراك الحـسى؛ لأن الحـس فى رأيه يفيد الظـن ولا يفيد اليقين. ومـا أبعد ذلك من تعاليم القرآن الذى يعد **السمع والبصر من أنعم نعم الله على عباده**».

وفى مـشروع المصالحـة؛ ينبغى أن يشـكل الدين نظرة الذهـن للطبيعـة، وينتقل بها من موضـوع حسى وجـدانى إلى موضوع عقـلى علمى، ليصنع نهضـة حضارة وسـؤدد أمة، وهو المشروع الذى توقف فى العالم الإسلامى منذ القرن التاسع الميلادى.

إن الصراع الحقيقى الذى يواجه المسـلم المعاصر ولا يرضى اللـه أبدًا التقاعس عن البلاء فيه ليس مع العقائد والفلسـفات المعادية للإسلام والتى واجهت أسلافنا، بل هو **الصراع مع**

(1) أطلق اصطلاح توراة الطبيعة عالم اللاهوت بارومر. ووفقًا لهذا المعنى نشر جون راى (1691) كتابًا بعنوان «حكمة الرب كما تتجلى فى أفعال الخلق»، ثم نشر وليم بالى (1743 - 1805) كتابه اللاهوت الطبيعى.

جحافل الطبيعة الضنينة، قهرًا للجهل والفقر والعجز والمرض، وهو أيضًا صراع من أجل ألا نمد أيدينا طلبًا للطعام والكساء والعلاج من الآخرين.

نموذج مشرف للمصالحة والتجديد

خلق الإنسان بين العلم والقرآن

إن السماء و إن بدت ملبدة بالغيوم لانتشار الفكر الدينى المُقَلِّد الجامد واستماتة أنصاره فى الدفاع عنه، فإن الساحة لا تخلو من عقول مستنيرة يؤرقها مستقبل الإسلام ومستقبل شبابه. و يشغل **الأزهر الشريف** بوسطيته موضعًا بين هذه العقول، لذلك استعرض هنا موقفًا تتجلى فيه استنارة بعض رجالات الأزهر، على عكس ما يروج البعض ليطعن هذه المؤسسة العريقة:

تُعتبر قضية خلق الإنسان من القضايا الساخنة التى يتجلى فيها الصراع بين العلم الحديث، الذى صار يتبنى بأدلته مفهوم **النشأة التطورية للإنسان**، و بين الفكر المُقَلِّد الذى يتبنى مفهوم **الخلق الخاص** تبعًا لما جاء فى التفسيرات التراثية لآيات خلق الإنسان فى القرآن الكريم[1]. وكلما لاحت فى الأفق محاولة للتوفيق بين المفهوم العلمى والمفهوم التراثى لخلق الإنسان، انبرى المُقَلِّدون **معترضين وساخرين، بل ومكفرين** من يحاول جاهدًا القيام بهذا التوفيق. لكن يقف بعض رجالات الأزهر تجاه هذه القضية وقفات موضوعية مشرقة تضيف إلى تاريخ الفكر الإسلامى المستنير صفحات سيظل يفخر بها المسلمون لقرون قادمة. و إليك بعض هذه المواقف:

- أصدر **د. عبد الصبور شاهين**[2] (رحمه الله) عام 1998 كتاب **«أبى آدم، قصة الخليقة بين الأسطورة والحقيقة»**، عرض فيه قصة خلق الإنسان كما فهمها من آيات القرآن الكريم، وصرح بأن الآيات الكريمة تحمل ملامح التطور فى خلق الإنسان من كائن بدائى إلى كائن عاقل. قامت الدنيا ولم تقعد، ورفع عليه أنصار المدرسة التقليدية أربع قضايا تطالب بتكفيره!. طلبت المحكمة من مجمع البحوث الإسلامية الإدلاء برأيه فى الكتاب، فشكل المجمع لجنة علمية بحثت الكتاب وأصدرت تقريرها الذى أنصف الرجل وأنصف كتابه وانتصر للعقل. جاء فى التقرير[3]:

«ليس للّجنة على المنهج الذى اتبعه المؤلف أى مأخذ؛ حيث حدد **هدفه من بحثه** بأنه

(1) شرحنا هذا الاختلاف بالتفصيل فى الفصل السادس من الكتاب.

(2) د. عبد الصبور شاهين: (1929 - 2010)، أستاذ اللغة العربية فى كلية دار العلوم والضليع فى علوم القرآن.

(3) قصة المعركة حول كتاب «أبى آدم» وتقرير مجمع البحوث الإسلامية وردت فى كتابى « كيف بدأ الخلق»، مكتبة نيوبوك، الطبعة السابعة، 2017.

محاولـة لفهم النصوص التى جاءت فى القـرآن الكريم تروى وقائع قصة الخلق، وأيضًا محاولة للتوفيق بين التصوير القرآنى والاتجاه العلمى (علوم البيولوجيا والجيولوجيا والأنثروبولوجيا) فى تصويـر الحيـاة البشريـة على هـذه الأرض. **ولا حَرَجَ علينـا فى هذا** ما دمنا نرعى قداسـة النصوص المنزلـة، وما دمنا لا نخالف معلومًا من الدين بالضرورة، وما دمنا نقدم رؤية عقلية تحـترم المنطق وتسـتنطق اللغـة من جديد، وتدعم إيمـان المؤمنين بما ينطوى عليـه كتاب الله مـن أسرار قد تكون خَفِيَت عن بصائر ذوى التمييز، ثم أذن الله ـ سـبحانه ـ لبعض السر أن ينكشف وللرؤية أن تَنْجَلى..».

«ويجمع المؤلف رأيه كله فى قوله: **فخلْق الإنسان بدأ من طين، أى فى شكل مشروع بشرى، ثم استخرج الله منه نسلًا** ﴿...مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ [السجدة: 8] **ثم كانت التسوية ونفخ الروح، فكان (الإنسـان) هو الثمرة فى نهاية المطاف.. عبر تلكم الأطوار التاريخية السحيقة العتيقة..».**

ولا تـرى اللجنـة فيـما كتبه المؤلف محاولـة للتوفيق بـين العلم والدين بقدر مـا ترى فيه **اجتهادًا منه فى فهم النص القرآنى**، وهو اجتهاد لا توافق اللجنة المؤلف على بعض أجزائه.

لكـن اللجنـة فى نفـس الوقت **لا تـرى أن المؤلف قد تجـاوز الحـد فى تأويلاته للنصوص القرآنية** تجاوزًا يخالف به ثوابت العقيدة أو يناقض ما هو معلوم من الدين بالضرورة.

ويؤمـن المجمـع بحاجة هذا الجيـل من المسـلمين إلى متابعة الاجتهـاد وتقليب النظر فى الآفاق وفى الأنفس، وإلى مواكبة التطورات العلمية الهائلة التى غيرت أساليب معيشة الناس وأوضاعهم خلال القرن الذى توشـك الإنسانية أن تودعه، وذلك باجتهاد متصل وفقه متجدد وبصر دقيق بحاجات الناس التى صارت تتغير بسرعة هائلة (بتغير الأمكنة والأزمنة والأحوال). على أن يتم ذلك كله بطبيعة الحال من خلال **منهج علمى أصولى دقيق**، لا يخالف فيه الباحث شـيئًا من ثوابت العقيدة أو الشريعة، ولا يميل ـ مهما كانت البواعث ـ عن قول الحق فى تجرد وصدق وشجاعة».

انتهى تقرير اللجنة، وجزى الله أعضاءها عن العلم والعقل والإسلام خير الجزاء.

❐ أصدر **د. حسـن حامد عطية**[1] كتابه **«قضية الخلق»** عام 1999 وتبنى فيه مفهوم «التطور البيولوجى الموجه» الذى نتبناه وعرضناه فى الفصل السـادس من هذا الكتاب، كما تصدى لتأويل عدد من الآيات القرآنية الواردة عن خلق الإنسـان فى ضوء مفهوم الخلق التطورى بدلًا من الفهم السائد بالخلق الخاص.

(1) د. حسن حامد عطية: أستاذ علوم البيولوجيا والتطور، الكتاب من منشورات دار الخيال.

ولـم يجد **د. عبد المعطى بيومـى،** عميد كلية أصول الدين ـ جامعـة الأزهر، تعارضًا بين اجتهادات د. حسـن حامـد عطية وبين ثوابت العقيدة، حتى إنه كتـب مقدمة الكتاب التى جاء فيها:

«هذا الكتاب لا يرتاب قارؤه فى **صدق إيمان مؤلفه،** فهو لا يكف عن تمجيد إلهه سبحانه وتعـالى، ونسـبة الأمر كله لله والخلـق كله إليه، ولا يـنى لحظة واحدة عن إثبات سـعة علم الله عَزَّوَجَلَّ وإحاطته بكل شىء، وإشادته بقدرته سبحانه وباجتماع العلم والقدرة فى الخلق، والاستدلال بقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر].

ومع ذلك فهو **يفسر بعض آيات القرآن الكريم فى ضوء بعض النظريات العلمية فى خلق الإنسان والحيوان والعلاقة بينهما فى المراحل الأولى للخلق.**

وفى ذلـك نـرى أننا نختلـف معه أحيانًا ونتفـق أحيانًا، وذلك شىء طبيعـى ما دمنا بصدد تفسـيرات بشرية للقرآن الكريم مع التسـليم المطلق منا ومن الكاتب والقارئ على السـواء **بالنص القرآنى المعصوم من الخطأ وبالعقائد الإسـلامية الثابتة بنصوص القرآن الكريم،** والتى لا ينال من صحتها وثبتها على وجه الزمن خطأ الأفهام أو غلط التفسيرات، فهى حق فى ذاتها، وحق فى طريق ثبوتها».

«ومنذ نزل القرآن الكريم كان كل عصر يرى فى القرآن رؤية جديدة بما يحصله من ثقافة وما يعينه على فهم الآيات من آفاق العلم والمعرفة السـائدة، وكل إنسـان يقرأ القرآن فيفهم منه بما وهبه الله من قـدرة عـلى الفهم وبما أسبغه عليه من علوم وثقافة وبما اتسع به أفقه من دراسة بالحياة وشئونها، فيستخرج كلٌّ من القرآن ما يهديه أو يهتدى إليه.

والقرآن مع ذلك يسـع الجميـع، بعموم ألفاظه، وثراء معانيه. ولقـد نبه الدكتور «موريس بوكاى»[1] فى كتابه «دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة» إلى إعجاز القرآن البالغ فى أنه هو **الكتاب السـماوى الوحيد الذى لا يوجد به خطأ علمى واحد،** وعلل ذلك بأن القرآن ـ على حد قوله ـ **لم يتورط فى التفاصيل بل عرض الحقائق بأسلوب عام يسع كل الأفهام ويفتح الباب للاجتهاد،** ويظل مع ذلك متفقًا مع الحقائق العلمية الثابتة».

«وما دامت أفكار الكتاب تعتمد على **الإيمان بالخالق وعلى عموم النص القرآنى والاعتراف بقداسة هذا النص فلا حرج بعد ذلك أن يخطىء العلم البشرى أو يصيب».**

(1) Maurice Bucaille: (1920 - 1998)، طبيب فرنسى وأسـتاذ فى الجراحة. نشـأ مسيحيًّا كاثوليكيًّا ثم اعتنق الإسلام، ولـه عدة كتابات عن العلاقة بين القـرآن الكريم والعلم والتاريخ، وله مؤلفات حول شـخصية فرعون. وكان يتقن اللغتين العربية والهيروغليفية.

«ولئن كنا ندرك أن ربط التفسير القرآنى بالنظريات العلمية تحوطه المخاوف عند الكثيرين، مخافة أن تبطل النظرية فيهتز الإيمان بحقيقة النص، فإننا نرى أن **الاجتهاد ـ أيًّا كان ـ فى فهم النص هو غير النص**، فلئن تبين خطأ الاجتهاد فلا ضرر ولا ضرار؛ لأن **النص باق على اعتباره والإيمان به، لا يختلف التفسير العلمى فى ذلك عن سواه من التفسيرات**. ولطالما تعددت أقوال المفسرين بغير العلم عبر العصور، ثبت منها ما ثبت وبطل منها ما بطل، وبقى القرآن ثابتًا، رغم تغير الآراء، فليكن التفسير العلمى إذن واحدًا من هذه التفاسير، يجرى عليه ما جرى على غيره من الخطأ والصواب، ويبقى القرآن بمنجاة من الخطأ والصواب فى كل حال».

«لم يكن ما فعله المؤلف بجديد، فإن هناك علماء أفذاذًا فتحوا مجالًا لهذه التفسيرات العلمية فى تراثنا، من أقدم هؤلاء إمام المفسرين بالرأى، **الإمام الفخر الرازى** حيث امتلأ تفسيره الكبير «مفاتيح الغيب» بالتفسير الكونى حيث كان العلم بالكون فى زمنه مجال بحث وجدال. وكذلك **الشيخ طنطاوى جوهرى** عمدة المفسرين العلميين فى عصرنا، ثم يأتى **الشيخ محمد فريد وجدى** على رأس الذين فتحوا المجال لنظرية التطور، خاصة أن مؤكداتها لا تمس قاعدة من قواعد الدين ولا تهز نصًا من نصوص القرآن أو الحديث، ويذكرنا برأى **ابن مسكويه والفارابى وابن خلدون** فى ترتيب الأنواع. وعلى هذا الدرب سار **الأستاذ عباس العقاد متعجبًا** من فزع البعض من النظرية وقلقهم على الدين بينما الدين فى مأمن من هذه النظرية وغيرها من النظريات».

«وفى هذا الإطار ينبغى أن يكون موقفنا من هذه النظرية وغيرها من الاجتهادات **لا تشنجًا ولا فزعًا أو مصادرة، بل فحصًا بالموضوعية، ومقارعة بالحجة وجدالًا بالتى هى أحسن، ولا ضرر ولا ضرار على الدين لأنه بمثل هذا الجدال يقوى فى القلوب وتشتد به العقول ولا ينال منه رأى أخطأ صاحبه أو أصاب»**.

جزى الله د. عبد المعطى بيومى عن العلم والعقل والإسلام خير الجزاء

❐ طلب **د. محمد عمارة** (المفكر الإسلامى ورئيس تحرير مجلة الأزهر) من **د. عمرو شريف** (مؤلف الكتاب) أن يكتب كتابًا مبسطًا عن الإلحاد، ليكون هدية مجلة الأزهر، وبالفعل صدر الكتاب بعنوان **«وهم الإلحاد»** مع عدد المحرم للعام 1435هـ. ويطرح الكتاب فى تفنيده لآراء الملاحدة وإظهار العلاقة بين العلم والدين **عددًا من المفاهيم التى تخالف ما عليه الفكر الإسلامى المُقَلِّد**، ومنها القول بالتطور البيولوجى الموجه، وفاعلية الأسباب ودور المخ البشرى فى المشاعر الروحية وغيرها.

وبالرغم من ذلك **تبنت مجلة الأزهر الكتاب** وقدم له د. محمد عمارة بمقدمة زادته ثراء وأثنت على منهجه الذى يمثل جسرًا يربط بين العلم والدين، وجاء فى المقدمة:

«إنه **كتاب علمى دقيق عميق**، ومع ذلك فهو واضح وممتع وجذاب. ففيه مستويات من الحقائق العلمية وطبقات من البراهين المنطقية، تجعل لكل قارئ من القراء الذين تتفاوت مداركهم العلمية ومستوياتهم الفكرية، نصيبًا وحظًا يدعم الإيمان ويبدد شبهات الإلحاد».

جزى الله د. محمد عمارة عن العلم والعقل والإسلام خير الجزاء.

❐ ربما كان المفكر الإسلامى الكبير د. مصطفى محمود (رحمه الله) أول من طرح مفهوم التطور الموجه فى العالم الإسلامى. وقال إن حرفًا واحدًا وهو «ى» يضاف إلى كلمة «تطور» لتصبح «تطوير» يحل المشكلة. ومنذ أكثر من أربعين عامًا والدكتور مصطفى محمود يتحدث فى مقالاته وكتبه وبرنامجه التليفزيونى الأشهر فى العالم العربى «العلم والإيمان» عن «التطور الموجه» و«التطوير الإلهى».

لم يعترض رجالات الأزهر الشريف على هذا الطرح، ولم نسمع صوتًا معارضًا واحدًا فى الساحة الإسلامية. لقد كان رجال الفكر الإسلامى **أوسع أفقًا وأوفر ثقة فى منهجهم وأكثر احترامًا للعلم** مما نحن عليه الآن. لذلك لم نسمع عن الفكر الإلحادى أيام د. مصطفى محمود كما نسمع عنه الآن.

جزى الله رجالات الإسلام المستنيرين عن العلم والعقل والإسلام خير الجزاء

القارئ الكريم...

تبدأ رحلة الخروج من مستنقع الإلحاد والملاحدة **بإدراك ما يسببه الإلحاد من تدن عقائدى وأخلاقى وعلمى وفكرى**. كما ينبغى التنبه إلى **كذب ادعاءات الملاحدة من أن التقدم العلمى والحضارى فى الغرب هو من نتاج الإلحاد**، حتى إنهم فى مناظراتهم يرددون دائمًا نحن أنجزنا كذا وكذا، وأنتم متخلفون حضاريًّا! إن ما عليه الغرب من تقدم علمى حققه علماء فطاحل كان معظمهم من المؤمنين بالله الواحد الأحد، كذلك ما فى الحضارة المعاصرة من بعض **المفاهيم والسلوكيات الأخلاقية الإيجابية** إنما هو نتاج أعراف استقرت فى هذه المجتمعات بعد أن أفرزتها المفاهيم الدينية.

يأتى بعد ذلك ـ للخروج من المستنقع ـ دور التحقق بمنظومة الإيمان الثلاثية؛ إثبات الوجود الإلهى وتواصله مع البشر واختيار الدين الحق، ولكل من عناصر هذه المنظومة أدلتها العلمية والفلسفية.

ولا ينبغى أن نتهرب من مسئولية خطابنا الدينى السائد عن اتجاه بعض شبابنا إلى الإلحاد، لذلك لن يتم تجفيف هذا المستنقع تمامًا إلا بتجديد الفكر الدينى وإجراء المصالحة بينه وبين الدين والعقل والإنسان والتاريخ والعلم والطبيعة.

ويصف المفكر البريطانى روب لاسى[1] «الوثنية Idolatry» بأنها «**أن تحيا من أجل المخلوق بدلًا من الخالق**»[2] ويضيف لاسى؛ إذا كنا لا ننحنى أمام أجهزة التليفزيون والكمبيوتر، فإننا **كثيرًا ما نحيا من أجل هذه الأشياء ونرفعها فوق منزلتها**، وننزلها فى أنفسنا حيث يجب أن ننزل الإله، **معتقدين أن فى ذلك كمال الحرية**.

إنه **خلل فى وضع الأولويات**؛ نهبط بأهم ما فى الحياة (الإله) ونرفع أشياء أخرى. وبهذا المفهوم فإن المادية نوع من الوثنية، إذ ترفع المخلوق (الطبيعة) فوق الخالق. ويكون ذلك بإحدى طريقتين، **إما نفى الألوهية بالمرة أو وضعها خارج العمل** (الديانة الطبيعية).

ويشير ألدوس هكسلى[3] إلى هذا المعنى قائلًا: «إن تبنى الإنسان لمفهوم الإلحاد وفلسفة العدمية (الفناء بعد الموت) إنما **كان بدافع البحث عن التحرر**، بعد أن رفضنا القيم السماوية العليا لِتحقيق الحرية الجنسية، كما رفضنا انعكاسات الدين على السياسة والاقتصاد بدافع التحرر أيضًا».

وإذا كان الكل يؤمن، فإن **لكل إيمان عواقبه**. فعندما نعزل الكون عن الإله فإننا نحرم الإنسان من التعرف إلى خالقه، حتى يعتبر أن معاناته وآلامه من إفراز قوى الطبيعة العمياء بسبب سوء تعامله معها. أى أن الإنسان يرى أن معاصيه وآثامه إنما هى فى حق الطبيعة، وليست فى حق الله عَزَّوَجَلَّ.

إن الكتاب الذى بين يديك دليل للرحلة إلى الله، وهذا الفصل يمثل حصاد الكتاب وحصاد الرحلة، فاسمح لى وقد أوشكنا على المفارقة أن أختم الرحلة بهذه الوقفة التأملية.

---

(1) Rob Lacey: (1962 - 2006)، ممثل ومفكر بريطانى، أصل مقولة لاسى:

Living for the Product instead of The Producer

(2) وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: «**تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس عبد القطيفة تعس عبد الخميصة تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش، إذا أُعطى رضى وإذا مُنع سخط**».

(3) Aldous Huxly: (1894 - 1963)، الكاتب البريطانى الشهير، من المهتمين بحقوق الإنسان والفلسفة والروحانيات.

قراءة فى الكتابين

يقـوم الإيمـان باللـه عَزَّوَجَلَّ عـلى دعامتـين أساسـيتين: الأولى هـى **الأدلة عـلى الألوهية والوحدانية**، وقد تكفل **العلم فى قراءته المعاصرة** للكون بإظهار هذه الأدلة من خلال **البرهان الكـونى**. والدعامة الثانية هى إدراك ما يقدمه الله عَزَّوَجَلَّ لجميع مخلوقاته، وللإنسـان بصفة خاصـة، من **عناية ورعاية**، وقد بَـيَّن العلم بجلاء من خلال **المبدأ البشرى** الكثير من جوانب هذه العناية والرعاية.

ومـن ثـم، **فالكون هو كتاب الله المنظور**، الذى ينبغى أن نتعلم قراءة آياته، تمامًا كما نقرأ آيات **كتاب الله الكريم المنزل** على رسوله ﷺ، لندرك ما بينهما من توافق وتناغم وتكامل.

لذلك، فالقرآن الكريم يحيلنا عند طرح قضية الإيمان إلى كتاب الكون حتى تكتمل فى قلب الإنسان و يقينه من **القراءة فى الكتابين (القرآن والكون)** أدلة الألوهية وأدلة العناية والرعاية.

انظر قول الحق عَزَّوَجَلَّ:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت].

فى هذه الآية، يخبرنا الله عَزَّوَجَلَّ أنه قد أودع فى الكون (الآفاق)، وفى الإنسـان (أنفسـهم) من الآيات التى سيكشـفها للبشر تباعًا ما يبين لهم بيقين أنه الحق. وهذا هو **البرهان الكونى فى القرآن الكريم**.

ثم يتدرج الإنسان مرتقيًا فى علمه حتى يصبح عالِمًا حقيقيًّا فيحقق **مقام الخشية**.

﴿ ... إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ... ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر].

ثم انظر إلى آيتى سورة إبراهيم (آية 32، 33):

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

هل لاحظت كيف بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ دلائل العناية والرعاية **(المبدأ البشرى) فى قرآنه الكريم**،

ووجهنا في نفس الوقت لنرصدها ونتذوقها في الكون من حولنا. إن الآيتين الكريمتين تشيران إلى أن الله عَزَّوَجَلَّ:

- ❐ أوجد **السماوات والأرض** من عدم.
- ❐ وجعل لنا **الشمس** نجمًا مثاليًّا والقمر **تابعًا** مثاليًّا.
- ❐ وجمع لنا بين فوائد **الليل** وسكونه و**النهار** ونشاطه.
- ❐ وأنزل لنا **الماء** من السماء.
- ❐ وأنبت لنا **الثمرات** من الأرض.
- ❐ وبث في الأرض **الثروات الطبيعية** الميسرة، كالأنهار.
- ❐ حتى **ما نصنعه بأيدينا** (كالفلك) فبهدايته.
- ❐ وكشف لنا أسرار القوانين التي تُسَيِّر قوى الطبيعة (بأمره).

وأخيرًا انظر قول الحق عَزَّوَجَلَّ:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران].

تمزج هاتان الآيتان بين آيات كتاب الكون المنظور وكتاب القرآن المسطور مزجًا يأسر العقول والقلوب، و يبيِّن أن التردد بين قراءة الكتابين هو الذي يحقق كمال الإيمان بالله وبالدين. فقد وصف الله عَزَّوَجَلَّ من يتأملون خلق السماوات والأرض بأنهم هم أصحاب العقول (أولو الألباب)، ثم يعود ليصف هؤلاء بأنهم الذين يزاوجون بين الذكر الدائم والتفكير الحكيم. وعلى الفور (دون أن يضع القرآن الكريم أدوات وصل أو عطف) يحقق الذكر والتفكير عدة نتائج متتالية:

- ❐ الإيمان بالله (ربنا).
- ❐ الإيمان بأنه الخالق (خلقت).

❐ الإيمان بحكمة الله (ما خلقت هذا باطلًا).

❐ تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ (سبحانك).

❐ الإيمان بما جاء في رسالته من بعث وجزاء (فقنا عذاب النار).

جعلنا الله ممن وصفهم بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾

صدق الله العظيم

❐❐❐